

أغوتا كريستوف

الدّفتر الكبير

ترجمة: محمد آيت حنّا

منشورات الجمل

رواية

أغوتا كريستوف



الدّفتر الكبير

رواية

ترجمة: محمد آيت حنّا

منشورات الجمل

اغوتا كريستوف، الدّفتر الكبير، رواية

وُلدت **أغوتا كريستوف** سنة ١٩٣٥ بهنغاريا، وغادرتها في سنّ العشرين لاجئة إلى سويسرا، وهناك سلمت حياتها القروية البسيطة إلى قساوة حياة العمّال، مثلما سلّمت لغتها الأمّ إلى اللغة الفرنسية (اللغة العدوّ بتعبيرها). كتبت أغوتا كريستوف كلّ أعمالها الأساسية بالفرنسية على الرغم من أنّها لم تكن تعرف حرفاً من هذه اللغة حين وصلت إلى سويسرا، فتميّز متنها أساساً بطابعه المزدوج، إذ هي تكتب وفي الآن نفسه تقدم خطاطات تمارين للكتابة. يعكس كتابها **الدفتر الكبير** هذا الطابع المزدوج ويضيء في الآن نفسه شيئاً من حياتها التي فصّلتها في سيرتها المقتضبة «الأمية».

توفيت سنة ٢٠١١ في نيوشاتل بسويسرا، بعدما خلّفت متناً مهمّاً يتكوّن أساساً من روايات (**الدفتر الكبير** - **البرهان** - **الكذبة الثالثة** - **أمس**) والعديد من المسرحيات والتمثيليات الإذاعية.

محمد آيت حنّا. كاتب ومترجم مغربي مهتم بالفلسفة والأدب والجماليات. وُلد سنة ١٩٨١ بالرباط وبها أكمل مساره الدراسي. حصل على شهادة التبريز في الفلسفة. يدرّس بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالدار البيضاء. من مؤلفاته: **الرغبة والفلسفة، مدخل إلى قراءة دُلوز وغوتاري** (الدار البيضاء ٢٠١٠)؛ **عندما يطير الفلاسفة**، قصص (الدار البيضاء ٢٠٠٧). صدر له عن منشورات الجمل ترجمة كتاب كاظم جهاد: **حصّة الغريب، شعرية الترجمة وترجمة الشعر عند العرب** (٢٠١١) وترجمة رواية **الغريب** لألبير كامو (٢٠١٣).

أغوتا كريستوف: **الدّفتر الكبير**، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Agota Kristof: *Le Grand Cahier*, roman (1986)

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الوصول إلى بيت الجدّة

جئنا من المدينة الكبيرة. كنّا قد سافرنا اللّيل بأكمله. عينا أمي كانتا محمرّتين. كانت تحملُ صندوقَ كرتون كبيراً، فيما يحملُ كلّ منّا حقيبة صغيرة تحوي ملابسه، بالإضافة إلى المعجم الكبير، الذي كان ملكاً لأبي، والذي كنّا نتبادلُ حمله كلّما تَعِبَ ساعدُ أحدنا.

مشينا طويلاً. منزلُ الجدّة بعيد عن محطّة القطار، هو في الطرف الثاني من المدينة الصغيرة. لا يوجد هنا تراماواي، ولا باص ولا حتّى سيّارات. وحدها بعض الشاحنات العسكرية تجوب الطرقات.

ليس ثمّة سوى القليل من السابلة، والمدينة تغرق في صمتها. بوسعنا سماعُ وقع خطانا؛ كنّا نمشي دون أن ننبس بكلمة، تتوسّطنا أمّنا، نحن الاثنين.

وأمام حديقة بيت الجدّة، قالت أمّنا:

- اِنتظراني هنا.

اِنتظرنا قليلاً، ثمّ دخلنا الحديقة. دُرنا حول المنزل، جثمنا أسفل النافدة حيثُ تنبعثُ الأصوات. قال صوتُ أمي:

- ما عاد لدينا شيء نأكله؛ لا خبز، ولا لحم، ولا خضر، ولا حليب. لا شيء. ما عاد بوسعي إطعامهما.

ردَّ صوتٌ آخر:

- إذاً، تذكّرتني. منذ عشر سنوات لم تتذكّري. عشر سنوات، لا زيارة ولا رسائل.

قالت أمي:

- تعرفين لماذا. فأنا، كنتُ أحبّ أبي.

الصوتُ الآخر:

- نعم، والآن تذكّرتِ أنّ لديك أيضاً أمّاً. جئتِ تطلبين مساعدتي.

قالت أمّنا:

- لا أطلب شيئاً لأجلي. ما أريده فقط، هو أن يعيش طفلايَ، أن يجتازا هذه الحرب. إنّ المدينة الكبيرة تُقصف ليلاً ونهاراً، ولم يعد ثمّة شيء يؤكل. تمّ إجلاء الأطفال إلى القُرى، عند أجدادهم أو عند الغرباء، أنّى كانوا.

قال الصوتُ الآخر:

- ما عليكِ إلا أن ترسليهم عند الغرباء، أنّى كانوا.

قالت أمي:

- إنّهما حفيداك.

- حفيداي؟ لستُ أعلم حتّى عددهم[1]؟

(١) يتعلّق الأمر هنا بتمييز المعدود الذي لا يحوز في اللّغة الفرنسية (شأن لغات عديدة) صيغة المثنّى، فالمعدود إما مفردٌ أو جمع، لهذا فالمتحدثُ عن أطفال des enfants، لا يكاد يبين تعلّق الأمر بطفلين أم بأكثر.

- هما اثنان؛ ولدان، توأم.

تساءل الصوتُ الآخرُ:

- ماذا صنعتِ بالآخرين؟

تساءلت أمي:

- أيّ آخرين؟

- الكلابُ تضع أربعة إلى خمسة جراء في كلّ بطن. نحتفظُ بواحد أو اثنين ونُغرق الباقي.

ضحكَ الصوت الآخر عالياً. ظلت أمّنا صامتة، ثمّ سألها الصوتُ الآخر:

- أَ لديهما، على الأقل، أبٌ؟ لستِ متزوّجة، على حدّ علمي. لم يدْعُني أحدٌ إلى زفافك.

- أنا متزّوجة. أبوهما ذهبَ إلى الجبهة. ولا خبرَ عنه منذ أشهر ستة.

- بإمكانك إذاً نعيه.

عاد الصوت الآخر إلى القهقهة، فيما انخرطت أمّنا في النحيب. عُدنا إلى باب الحديقة.

خرجت أمنا من المنزل رفقة امرأة عجوز.

قالت لنا أمّنا:

- هي ذي جدّتكما. ستظلاّن معها بعض الوقت، إلى حين انتهاء الحرب.

قالت جدّتنا:

- واردٌ أن تطول الحرب. لكنّي سأدفع بهما للعمل، لا تشغلي بالك. هنا أيضاً ليس الأكل مجاناً.

قالت أمّي:

- سأبعثُ إليك بالنقود. ملابسهما في الحقيبتين. وفي الصندوق ملاءات وأغطية. كونا طيبين يا صغيريّ. سأكاتبكما.

قبّلتنا وانصرفت باكية.

ضحكت جدّتنا بصوت عالٍ وقالت لنا:

- ملاءات وأغطية! قمصان بيضاء ونعال مبرنقة! أنا سأعلّمكما كيف تعيشان!

أخرجنا لسانينا استهزاءً بالجدّة. ضحكت بصوت أعلى وهي تضرب على فخذيها.

بيتُ الجدّة

يبعدُ بيتُ الجدّة عن آخر بيوت المدينة الصغيرة بخمس دقائق سيراً على الأقدام. وبعده، لا شيء، سوى الطريق المغبرّة التي تنتهي سريعاً عند حاجز حديدي. ممنوع الذهابُ أبعدَ، وهناك عسكري للحراسة. للعسكري مسدس رشاش ومنظارٌ، وحين تمطرُ يحتمي بمخدع. كنّا نعلم أنّ ما وراء الحاجز الحديدي، تحجبُ الأشجارُ قاعدةً عسكرية سرّية، وخلف القاعدة العسكرية هناك الحدود، ثمّ بلدٌ آخر.

تحوط بيتَ الجدّة حديقةٌ، يجري أقصاها نهرٌ، وبعد النّهر الغابةُ.

الحديقة مزروعة بكلّ صنوف الخضر والأشجار المثمرة. وعند زاوية منها قفص أرانب وخمّ دجاج وزريبة خنازير وكوخ ماعز. حاولنا الركوب على ظهر أكبر الخنازير، بيد أنّه من المستحيل الثبات فوق ظهره.

تبيع الجدّة في السوق الخضرَ والفواكه والأرانب والبطّ والدجاج، كما تبيع بيض الدجاج وبيض البط، وجبن الماعز. أمّا الخنازير فتبيعها للجزّار الذي ينقدها مالاً، مثلما يعطيها لحماً مدخّناً ونقانقَ.

هناك أيضاً كلبٌ لإبعاد اللّصوص وقطّ لاصطياد الفئران والجرذان. ولا ينبغي إطعام القطّ، هكذا يظلّ جائعاً على الدوام.

تملك الجدّة أيضاً حقل كروم عند الطرف الآخر من الطريق.

ندلف إلى المنزل عبر المطبخ الفسيح الدافئ، حيثُ النارُ تظلُّ مشتعلة اليومَ بأكمله في فرن الخشب. عندَ النافذةِ طاولةٌ ضخمة ومصطبةٌ. وعلى هذه المصطبة ننام.

في المطبخ باب يفضي إلى غرفة الجدة، لكنّه دائماً مغلق بالمفتاح. وحدها الجدة تدخل غرفتها مساءً.

هناك غرفة أخرى يمكن ولوجها دون المرور من المطبخ، غرفة تنفتح مباشرة على الحديقة. يشغلُ هذه الغرفة ضابط أجنبي. بابها أيضاً مقفل بالمفتاح.

أسفل البيتِ قبوٌ مليء بما يمكن أكله، وتحت السّقف عليّة لم تعد الجدّة تصعد إليها مذ دهنّا السلالم فسقطت منها وتأذّت. يقع مدخلُ العليّة مباشرة فوق غرفة الضابط، ونصعد إليها بواسطة حبل. وهناك في الأعلى، أخفينا دفتر التأليف ومعجم أبي وبعض الأشياء الأخرى التي كان لزاماً علينا إخفاؤها.

لم يمضِ وقت طويل حتّى صنعنا مفتاحاً يستطيع فتح كلّ الأبواب، وحفرنا ثقوباً في خشب العليّة. بفضل ذاك المفتاح صار بوسعنا التجوّل في البيت بحريّة، عندما لا يكون أحد موجوداً، وبفضل الثقوب صار بإمكاننا التلصّص على الجدّة والضابط في غرفتيهما دون أن يرتابا للأمر.

الجدّة

جدّتنا هي أمّ أمّنا. قبل مجيئنا للعيش في بيتها لم نكن نعلم أنّ أمنا ما تزالُ لديها أمّ.

نناديها جدّتنا.

الناسُ ينادونها المشعوذة.

تنادينا هيَ «ابنيْ الكلبة».

جدّتنا ضئيلة الجسم وضامرة. تضع شالاً أسودَ على رأسها. ملابسها رماديّة قاتمة. ترتدي حذاء عسكرياً بالياً، وعندما يكون الجو مشمساً تتمشّى حافية القدمين. تملأ وجهها التجاعيدُ والبقع السّمراء والخالات المشعرة. لم تعد تملكُ أسناناً، على الأقلّ تلك الظّاهرة.

لا تغتسل الجدّة مطلقاً. تمسح فمها بطرف شالها كلّما أكلت أو شربت. لا ترتدي تبّاناً، هكذا كلّما أرادت التبوّل، تتوقّف حيثُ هي، تفرج ساقيها وتطلقُ بولها على الأرض أسفل تنانيرها. بالطبع هي لا تبوّل داخل المنزل.

لا تتعرّى الجدّة مطلقاً. راقبناها في الغرفة مساءً. تنزع

تنّورتها، هناك تنّورة أخرى تحتها. تنزع صِدارها، وثمّة صِدارٌ ثانٍ تحته. وتنام دون أن تنزع شالها.

لا تتكلّم الجدّة إلا لماماً، باستثناء المساء؛ ففي المساء تتناولُ قنينة من على الرّف، وتشربُ من عنقها مباشرة. وسريعاً ما تشرع في الحديث بلغّة لا نعرفها؛ لغة غير تلك اللّغة التي يتحدّث بها الجنود الأجانب، لغة مختلفة تمام الاختلاف.

وبهذه اللّغة المجهولة، تطرحُ الجدّة أسئلة، وتجيبُ عنها. تضحك أحياناً، وأطواراً تغضب وتشرع في الصراخ. وفي الأخير، تقريباً دائماً، تنخرط في البكاء، وتنصرف إلى غرفتها مترنّحة، ترتمي فوق سريرها، ونسمعها تنتحبُ طويلاً في حضن اللّيل.

الأشغال

كان علينا القيام ببعض الأشغال لحساب الجدّة. دون ذلك لا تطعمنا، وتطردنا ليلاً إلى الخارج.

في البداية امتنعنا. نمنا في الحديقة، وأكلنا الفواكه والخضر النيّئة.

في الصباح، قبل أن تشرق الشّمس، نلمح الجدّة تخرج من المنزل. تكون مضربةً عن الحديث معنا. تذهب لإطعام الحيوانات، تحلب العنزات، ثم تقودها إلى ضفّة النّهر وتقيّدها إلى جذع شجرةٍ. بعدها تَسقي الحديقة وتقطف الخضر والفاكهة ثمّ تُحمّلها على عربتها اليدوية. تُحمّل كذلك سلة مليئة بيضاً، وقفصاً صغيراً به أرنبٌ، ودجاجة أو فرخ بطٍ مقيّداً.

تقصد السّوق وهي تدفع العربة ممرّرة عنقها تحت مقبضها، فتضطرّ إلى إحناء رأسها. تترنّح بسبب الثقل. كما أنّ مطبّات الطريق وأحجارها تُفقدها التوازن، لكنّها تمضي قُدماً، قدماها إلى الداخل مثل بطّة. تمشي صوب المدينة، دون أن تتوقّف، ودون أن تضع عربتها أرضاً ولو مرّة واحدة.

عند عودتها من السّوق، تُعدُّ حساءً بالخضر التي لم تَبِعها،

ومن الفواكه تصنع مربّى. تأكلُ، وتقصدُ الكروم لتنعم بالقيلولة، تنامُ ساعةً، ثمّ تعتني بالكروم، أو إذا لم يكن لديها ما تفعله، تعود للمنزل، تقطع خشب المدفئة، تطعمُ الحيوانات مرّة أخرى، تعيدُ العنزات وتحلُبها، تذهبُ للغابة، تجمعُ الفطرَ والأعواد الجّافة، تصنعُ الجبن، تجفّف الفطرَ والفاصوليا، تعدّ مرطبانات خضر جديدة، تسقي الحديقة مجدّداً، ترتّب بعض الأشياء في القبو، وهكذا، إلى أن يرخي اللّيلُ سدوله.

في اليوم السادس، عند خروجها من المنزل، كنّا قد سقينا الحديقة. أخذنا من يديها السطلين الثقيلين اللّذين يحويان علفَ الخنازير، اقتدنا العنزاتِ إلى ضفّة النّهر، ثمّ أعنّاها على شحن العربة. وعند عودتها من السّوق، كنّا منهمكيْن في نشر الخشب.

على مائدة الطعام قالت الجدّة:

- لقد فهمتما؛ المأوى والطعام، ينبغي استحقاقهما.

أجبنا:

- ليس الأمر كذلك. فالعملُ شاقٌ، بيد أنّ الاكتفاء بمراقبة شخص مّا يعملُ، دون فعل أي شيء، شاقّ أكثر، خاصة إذا كان هذا الشّخصُ مُسنّاً.

قالت الجدّة متذمّرة:

- يا ابنيْ الكلبة! تقصدان أنّكما أشفقتما عليّ؟

- لا، يا جدّتي، فقط خجلنا من نفسينا.

بعد الزوال، ذهبنا نبحثُ عن الحطب في الغابة.

من حينها صرنا نقوم بكلّ الأشغال التي في مقدورنا القيام بها.

الغابة والنّهر

الغابة كبيرة جداً، والنّهرُ صغير جداً. لبلوغ الغابة ينبغي عبور النّهر. عندما ينحسر الماء، يصير بوسعنا عبور النهر وثباً من صخرة إلى أخرى. لكن أحياناً، عندما تمطرُ بغزارة، يبلغ مستوى الماء حدَّ خصرنا. الماء باردٌ وموحل، لهذا، قرّرنا بناء جسرٍ من الآجُرّ والخشب الذي وجدناه حول البيوت التي دمّرها القصف.

جسرنا متين. أريناه للجدّة. جرّبته ثمّ قالت:

- حسنٌ. لكنّ لا تبتعدا في الغابة؛ الحدود قريبة، والعساكر سيرمونكم بالرصّاص. واحرصا على أن لا تتيها، فلن آتيَ للبحث عنكما.

أثناء بنائنا للجسر، لاحظنا وجود أسماك. تختبئ الأسماك تحت الصخور الكبيرة، أو تستظلُّ بالدغل والأشجار التي تلتقي أغصانها وتتشابك تحت ماء النّهر. كنّا نختارُ من الأسماك أضخمها، نمسكها ثمّ نضعها في المِرشّ الممتلئ ماءً. وفي المساء، حين حملناها إلى المنزل للمرّة الأولى، قالت الجدّة:

- يا ابنيْ الكلبة! كيفَ أمسكتما بها؟

- بأيدينا. الأمرٌ سهلٌ، ينبغي فقط الثبات دون حراك والانتظار.

- أمسكا إذن الكثيرَ منها. أمسكا قدرَ استطاعتكما.

في اليوم الموالي، حمّلت الجدّة المِرَشّ فوق عربتها، وباعت أسماكنا في السّوق.

كثيراً ما نذهبُ إلى الغابة. لا نَضيع أبداً، فنحن نعرفُ أين تقعُ الحدود. لم يمض الكثيرُ حتّى أَلِفَنا الحُرّاس. لم يرمنا أحدٌ منهم قطُّ بالرّصاص. علّمتنا الجدّة كيف نميّز بين الفطر القابل للأكل والفطر السّام.

كنّا نجلُب من الغابة حزَم حطَبٍ فوق ظهرينا، وفي السلال كنّا نحملُ الفطرَ وثمار الكستناء. الحطبُ كنّا نرصفه بعناية لصق الحائطِ أسفلَ الإفريز، أما حبّات الكستناء، فكنّا نشويها فوق الفرن، حين لا تكون الجدّة بالبيت.

ذات مرّة، عميقاً في الغابة، عندَ حافة حفرة تسبّبت فيها قنبلةٌ، وجدنا جُندياً ميّتاً. كان جسده كاملاً وسليماً، باستثناء عينيه اللّتين نقرتهما الغربان. أخذنا بندقيّته وذخيرته وقنابله اليدويّة. البندقية أخفيناها في حزمة الحطب، والذخيرة والقنابل اليدوية في السلال تحت الفطر.

عندما وصلنا إلى منزل الجدّة وضعنا تلك الأشياء بعناية داخل أكياس البطاطس بعدما ملأنا الأكياس بالقشّ، ودفنّاها تحت الدكّة أمام نافذة الضابط.

القذارة

في بيتنا، بالمدينة الكبيرة، كانت أمّي تحمّمنا كثيراً. تحت ماء الدّش أو في حوض الاستحمام. كانت أيضاً تُلبسنا ملابس نظيفة وتقصّ أظفارنا. ولحلق شعر رأسينا، كانت تصطحبنا إلى الحلاّق. وكنّا ننظّف أسناننا بعد كلّ وجبة.

من المستحيل الاستحمام في بيت الجدّة. ليس ثمّة حمّام، لا بل ليست هنالك حتّى مياه جارية بالبيت. ينبغي ضخّ الماء من البئر الموجودة في الساحة، ثمّ حمله في دلو. لا يوجد في البيت صابون، ولا معجون أسنان، ولا أيّة مادة لغسل الملابس.

كلّ شيء في المطبخ قذرٌ. خشبُ الأرضية الأحمر، الشاذ المظهر، يلتصقُ بالأقدام، والطاولة الكبيرة تلتصق باليدين والمرفقين. الفرن أسود تماماً بسبب الدهون، والجدران حولهُ، أيضاً، بسبب الدخان المنبعث منه. ورغم أنّ الجدّة تغسلُ الأواني، إلا أنّ الصّحون والملاعق والسكاكين ليست نظيفة تماماً، والمقالي مغطّاة بطبقة سميكة من الرواسب. ومناديل المسح غامقة ومنتنة.

في البداية، فقدنا حتّى الرّغبة في الأكل، خاصّة حين رأينا كيف تعدّ الجدّة الطعام، دون أن تغسلَ يديها، وهي تمسح مخاطها بكمِّها. لكن فيما بعد، ما عدنا نهتم للأمر.

عندما يكون الجوّ حاراً، نذهب للاستحمام في النّهر، ونغسل وجهينا وأسناننا عند البئر. وعندما يكون الجو بارداً، يصير من المستحيل الاغتسال بشكل كامل. لا يوجد في المنزل أيّ وعاء كبير بما يكفي. إختفت ملاءاتنا وأغطيتنا ومناشفنا. ولم نرَ مرّة أخرى صندوق الكرتون الكبير الذي حملت فيه أمّنا هذه الأشياء.

باعت الجدّة كلّ ذلك.

كنّا نزداد اتساخاً، يوما بعد آخر، مثلنا مثل ملابسنا. كنّا نأخذ الملابس النظيفة من حقيبتينا الموجودتين أسفل المصطبة، لكن سرعان ما لم يعد لدينا ملابس نظيفة. الملابس التي نرتديها أخذت تتمزّق، والأحذية بدأت تبلى وتمتلئ ثقوباً. عندما يكون الأمرُ ممكناً، نتمشى بأرجلٍ حافية، ولا نرتدي غير بنطال أو سروال تحتي. صار أسفل أرجلنا قاسياً، لم نعد نحس بوخز الأشواك أو الحجارة. صارت بشرتنا سمراء ملوّحة، وامتلأت أذرعنا وأقدامنا بالخدوش والجروح والبثور ووخزات الحشرات. أظفارنا، التي لم نعد نقصّها، تتكسّرُ، وشعرنا الذي كاد يصير أبيض من الشمس، بلغَ أكتافنا.

المرحاضُ موجود أقصى الحديقة، وليس ثمّة ورق. نقتطع من بعض النباتات أكبر أوراقها حجما، وننظف بها قذارتنا.

أصبحت رائحتنا خليطاً من روائح الرّوث والسّمك والعشب والفطر والدّخان والحليب والجبن والوحل والطّين والتراب والعرق والبول والعفن.

صرنا ننزُّ نتانة مثلنا مثل الجدّة.

تمرينُ الجسد على الجَلَد

كثيراً ما تضربنا الجدّة؛ بيديها ذواتيْ العظام الناتئة، أو بمكنسة أو بمنشفة مبلّلة. كما تجذب آذاننا وتجرّنا من شعرنا.

يصفعنا أناسٌ آخرون أيضاً ويركلوننا بأقدامهم، دون حتّى أن نعرف السبب.

تؤلمنا الضرباتُ وتُبكينا.

السّقطات والخدوش والجراح والعمل والبرد والحرّ، أيضاً، تسببُ لنا الألم.

قرّرنا تقوية أجسادنا، حتّى نستطيع تحمّل الألم، دون أن نبكي.

بدأنا نتبادل الصّفعات، ثمّ بعدها اللّكمات. وحين رأت الجدّة الكدمات على وجهينا، قالت:

- من فعل بكما هذا؟

- فعلناه بأنفسنا، يا جدتي.

- تشاجرتما؟ لمَ؟

- لا شيء جدتي، لا تشغلي بالك، ليس الأمر سوى تمرين.

- تمرين؟ يا لكما من أحمقين! في النهاية، إذا كان الأمر يُمتعكما. . .

تجرّدنا من ملابسنا. أخذنا نضربُ بعضنا بحزام جلدي ونحن نردّد مع كلّ ضربة:

- هذا لا يؤلم.

تزدادُ ضرباتنا قسوة، أكثرَ فأكثر.

مرّرنا أيدينا فوق لهب شعلة. شججنا أفخاذنا وأذرعنا وصدرينا بسكين، ثمّ صببنا الكحول على الجراح. وكنّا نردّد كلّ مرّة:

- هذا لا يؤلم.

بعد مدّة، لم نعد بالفعل نحسّ شيئاً. وكأنّ أحداً مّا غيرنا هو من يتألم، وهو من يحرق نفسه ويجرحها، وهو من يعاني.

ما عدنا نبكي.

عندما تغضب الجدّة وتبدأ بالصراخ، نقول لها:

- كُفّي عن الصراخ، اضربينا بدلَ ذلك.

وعندما تضربنا نقول:

- اِضربي أكثر، ها نحن ندير لك خدنا الثاني، كما يقول الكتابُ المقدّس. اِضربي الخدّ الثاني أيضاً.

تجيبنا:

- ليأخذكما الشيطان جميعاً، أنتما والكتاب المقدّس وخدودكما.

الجُندي الوصيف[٢]

كنّا مستلقيْن على المصطبة في المطبخ. رأسانا يتلامسان. لم نكن قد نمنا بعد، بيد أنّ عيوننا كانت مُغمَضة. دفع أحدهم الباب، ففتحنا أعيننا. أعمانا ضوء منبعثٌ من مصباح يدوي. تساءلنا:

- من هناك؟

أجابنا صوت رجلٍ:

- لا خوف. أنتم لا خوف. إثنان أنتما، أم أنا شرِبَ كثيراً؟

ضحك، وأوقد قنديل الغاز على الطاولة ثمّ أطفأ مصباحه اليدويّ. صار بوسعنا الآن أن نراهُ بوضوح. هو جندي أجنبي، دون رتبة. قال:

- أنا يكونُ الجندي الوصيف للنقيب. أنتما تفعلان ماذا، هنا؟

أجبناه:

- نحنُ نسكن هنا، عند جدّتنا.

- أنتما حفيدا المشعوذة؟ أنا أبداً لم يرَ أنتما. أنتما يكون هنا منذ متى؟

---

(٢) جندي يتطوّع للخدمة المنزلية عند الضابط.

- منذ أسبوعين.

- آه! أنا كان ذهب إجازةً إلى بيتي، في قريتي. استمتع جيّداً.

سألناه:

- كيف أمكنك تحدّثُ لغتنا؟ أجابنا: أمّي وُلدَ هنا، في بلدكم. جاء يشتغلُ عندنا، نادلة في حانة. عرفَ أبي وتزّوج به. عندما كان أنا صغيراً، أميّ كان يحدّثني لغتكم. بلدكم وبلدي، يكون بلدين صديقين. نحاربُ العدوَّ معاً. أنتما يأتي من أين؟

- من المدينة الكبيرة.

- المدينة الكبيرة، خطرٌ كثيرٌ. بوم! بوم!

- أجل، ولم يبقَ شيء يؤكل.

- هنا، جيّدٌ للأكل. تفاح، خنزيرٌ، دجاج، كلّ شيء. أنمتا تبقيان كثيراً؟ أو فقط في العطلة؟

- سنظلّ هنا حتى تنتهي الحرب.

- الحربُ قريباً ينتهي. تنامان هنا؟ المصطبة عارية وقاسية وباردة. المشعوذة لا يريد إدخالكما الغرفة؟

- لا نريدُ المبيت في غرفة الجدّة. هي كثيرة الشخير ورائحتها نتنة. كانت لدينا أغطية وملاءات، لكنّها باعتها.

تناول الجندي الوصيف ماءً دافئاً من القدر الموضوعة على الفرن، وقال:

- أنا ينبغي أنِ ينظّف الغرفة. النقيب سيعود إجازة هذا المساء أو غداً صباحاً.

خرجَ، ثمّ عاد بعد دقائق. حملَ إلينا غطاءين عسكريين رماديين.

- لا يبع هذا المشعوذة العجوز، إذا كان شريراً جداً، أنتما يخبرني. أنا، بوم، بوم، أقتل.

ضحك مجدّداً، غطّانا ثمّ أطفأ القنديل وانصرف.

نهاراً، خبّأنا الأغطية في العليّة.

تمرينُ الرّوح على الجلَد

الجدّة تنادينا:

- اِبنيْ الكلبة!

الناسُ ينادوننا:

- اِبنيْ المشعوذة! اِبنيْ القحبة!

آخرون ينعتوننا بـ:

الأحمقيْن! السِفاحيْن! البليديْن! الحماريْن! الخنزيريْن! الرثّيْن! الوغديْن! الجيفتيْن! المقرفيْن! رقبتيْ المشنقة! بذرتي الإجرام!

عندما نسمع هذه النعوت، يحمرّ وجْهانا، وتنتصبُ آذاننا، ونحسّ بحكّة في عيوننا، وتبدأ أرجلنا ترتعد.

لم نعد نريد أن نحمرّ أو نرتعد. أردنا أن نألف الإهانات والكلمات الجارحة.

جلسنا إلى طاولة المطبخ، وجهاً لوجه، وحدّقنا في عينيْ بعضنا، وبدأنا نتبادل كلمات تزداد فظاعة شيئاً فشيئاً.

أحدنا:

الآخر:

- مُناكٌ! قذرٌ!

داومنا على هذه الحال، حتّى لم تعد هذه الكلمات تستطيعُ دخول دماغينا، لا بل لم تعد تدخلُ حتّى آذاننا.

كنّا نتمرّنُ على هذا النّحو، نصفَ ساعة يومياً، ثمّ نذهبُ بعدها للتجوّل في الطرقات.

كنّا نحتالُ على النّاس كي يشتمونا، ونلحظُ، في نهاية المطاف، أنّنا نفلح في أن نتحلّى باللاّمبالاة.

لكن هناك أيضاً تلك الكلمات القديمة.

فأمّي كانت تنادينا:

- عزيزيّ! حبيّ! سعادتي! طفليّ المحبوبين!

عندما نتذكّر هذه الكلمات تغرقّ أعيننا بالدموع.

علينا نسيان هذه الكلمات، لأن ما من أحد ينادينا بمثلها، ولأنّ الذكرى التي تحيل عليها هذه الكلمات، هي ثقلٌ يصعبُ حملُه.

هكذا أعدنا تمريننا بشكلٍ مغاير.

كنّا نقول:

---

(٣) كلّ هذه الشتائم تنطوي على معنيين معنى مجاز/ متداول هو المعنى الذي نترجم إليه، ومعنى حرفي لا يقلّ قدحية عن المعنى الأول، لذا نضعه بين قوسين.

- عزيزيّ! حبيًّ! أحبّكما... لن أتخلّى عنكما أبداً... لن أحبّ غيركما... إلى الأبد... أنتما حياتي كلّها...

ومن فرط ما أعدناها، فقدت هذه الكلمات معناها، وانطفأ ما تحمله من ألم.

المدرسة

حدثَ هذا منذ سنوات ثلاث.

كان الوقتُ مساءً. اِعتقد والدانا أننّا كنّا نائمين. وكانا في الغرفة الأخرى يتحدّثان عنّا.

قالت أمّنا:

- لن يحتملا فكرة أن نفرّق بينهما.

ردّ أبونا:

- لن يفترقا إلا أثناء حصص الدراسة.

قالت أمّنا:

- لن يحتملا هذا.

- لكن يجبُ فعله. الأمرٌ مهمٌ بالنسبة إليهما. الكُلُّ متفقٌ على هذا، حتّى الأساتذة والأخصّائيون النّفسيون. سيشقّ عليهما الأمرُ في البداية، لكنّهما سيتعوّدان شيئاً فشيئاً.

قالت أمّنا:

- لا، أبداً. أنا أعرفُ كيف ستجري الأمور، وأعرفهما. ليسا سوى شخصٍ واحد ووحيدٍ.

رفع والدُنا صوته:

- هذا بالضّبط ما ليسَ طبيعياً. إنّهما يفكران معاً، ويتصرّفان معاً. يعيشان في عالم آخرَ غير عالمنا. عالم لا يخصّ سواهما. وهذا ليس طبيعياً. لا بل إنّ الأمر مقلقٌ. أجل، إنّي قلق لأمرهما. إنّهما غريبا الأطوار. لسنا ندري ما الذي بوسعهما التفكير فيه. يتجاوزان سنّهما بكثير، ويعرفان أكثر ممّا ينبغي أن يعرفا من الأمور.

ضحكت أمّنا وقالت:

- لن تصلّ بك الأمور حدّ معاتبتهما على ذكائهما؟

- ليس في الأمر ما يُضحك. لمَ تضحكين؟

أجابت أمّنا:

- عادة ما يثيرُ التوائم الكثير من المشاكل. ليست هذه مأساة. كلّ شيء سيكون على ما يرام.

قال أبي:

- أجل كلّ شيء سيكون على ما يرام، إن أفلحنا في تفريقهما. كلّ فرد ينبغي أن يعيش حياته المستقلّة.

بعدها بأيام بدأنا الدراسة. كلّ واحدٍ على حدة في فصل مستقل. جلسنا في الصفّ الأمامي.

كانت تفصل بيننا البناية بطولها. بدت هذه المسافة شاسعة، وأحسسنا آلاماً لا تُطاق. وكأنّهم اقتطعوا من كلّ واحد نصف جسده. فقدنا توازننا، أصابنا الدّوار وسقطنا فاقديْ الوعي.

إستفقنا داخل سيارة الإسعاف التي كانت تنقلنا إلى المستشفى.

جاءت أمّنا لتأخذنا من المستشفى، كانت تبتسم وتقول:

- ستدرسان في فصل واحد، بدءاً من الغد.

في البيت، اكتفى والدنا بالقول:

- أيّها المخادعان!

ولم يمضِ وقت طويلٌ، حتى غادر إلى الجبهة. والدنا صحفيٌّ، مراسلُ حربٍ.

واظبنا على الذهاب إلى المدرسة، ما يناهزُ عامين ونصف. بعدها بدأ المدرّسون يغادرون بدورهم إلى الجبهة؛ فأخذت المدرّسات مكانهم. ثمّ ما لبثت المدرسة أن أُقفلت، بعدما كثُر دوي صفارات الإنذار، وكثُر القصفُ.

كنّا قد تعلّمنا القراءة والكتابة والحساب.

وفي بيت الجدّة قرّرنا مواصلة تعليمنا، وحدنا، دون حاجة إلى مدرّس.

شراء الورق والدفتر والأقلام

ليس في بيت الجدّة أوراقٌ ولا أقلام. ذهبنا نبحثُ عن بعضها في المتجر المسمّى «مكتبة-ورّاقة». اِخترنا رزمة أوراق مربّعة، وقلميْن، ودفتراً سميكاً كبيرَ الحجم. وضعنا كلّ تلك الأشياء على المنضدة أمام الرّجل الذي كان يراقبنا من الخلف.

قلنا له:

- نحتاجُ هذه الأشياء، لكن لا نقود لدينا.

قال الكُتُبيّ:

- كيف؟ لكن. . . ينبغي دفع ثمن هذه الأشياء.

كرّرنا كلامنا مرّة أخرى:

- ليس لدينا نقود، لكنّنا في أشدّ الحاجة إلى هذه الأشياء.

أجابَ الكُتبيُّ:

- المدرسة مقفلة، ولا أحد يحتاج إلى الدفاتر أو الأقلام.

قُلنا:

- إنّنا ندرس بالبيت. وحدنا. ندرّسُ أنفسنا بأنفسنا.

- أطلبا النقود إلى والديكما.

- والدنا في الجبهة، ووالدتنا بقيت في المدينة الكبيرة. نسكن مع جدّتنا، ولا مالَ لديها هي أيضاً.

قال الكُتبيّ:

- دون نقود لا تستطيعان شراء شيء.

لم نزد كلمة أخرى. اِكتفينا بالنظر إليه. هو أيضاً كان ينظر إلينا. كانت جبينه تتفصّد عرقاً. بعدَ برهة صرخ في وجهينا:

- لا تنظرا إليّ هكذا. اِنصرفا من هنا!

أجبناه:

- نتطوّع لإنجاز بعض الأشغال لحسابك نظيرَ هذه الأشياء؛ كأن نسقي حديقتك أو ننزع العشبَ الضار أو نحملَ الطُّرود...

صرخَ مجدّداً:

- لا أملك حديقة! لا أحتاج خدماتكما! ثمّ، أنتما لا تستطيعان الكلام بشكل طبيعي؟

- نحن نتحدّثُ بشكل طبيعي.

- أن تقولا في هذه السنّ «نتطوّع لإنجاز»، هل هذا طبيعي؟

- نحن نتحدّثُ بشكل سليم.

- تتحدّثان بشكل سليم، أكثرَ ممّا ينبغي. لا أحبُّ طريقتكما في الكلام! ولا حتّى الطريقة التي تنظران إليّ بها! أخرجا من هنا!

سألناه:

- هل تملكُ دجاجات يا سيدي؟

مرّر منديله الأبيضَ على وجهه الأبيض، وسألنا دون أن يصرخ:

- دجاجات؟ لمَ الدجاجات؟

- لأنّك إن لم تكن تملك دجاجات، بوسعنا أن نحصل على بعض البيض وأن نعطيه لك مقابل هذه الأشياء التي لا يمكننا الاستغناء عنها.

نظرَ إلينا الكُتبيُّ دون أن ينبسَ بحرف.

أضفنا:

- ثمن البيض يزدادُ ارتفاعاً يوماً بعدَ آخرَ، أما ثمن الورق والأقلام...

رمى بأوراقنا وأقلامنا ودفترنا تُجاه الباب وصرخَ:

- أُخرجا! لا أريدُ بيضكما! خذا كلّ هذه الأشياء ولا تعودا إلى هنا!

لملمنا الأشياء بعناية وقلنا:

- مع ذلك، نجدُ نفسينا مضطرين للعودة، حين تنفد الأوراق أو تجفّ الأقلام.

دراستُنا

للدراسة، نتوفّر على معجم أبي وعلى الكتاب المقدّس الذي وجدناه هنا في العليّة ببيت الجدّة.

لدينا دروسٌ في قواعد الإملاء وفي التأليف، وفي القراءة، وفي الحساب الذِهني، وفي الرّياضيات، وفي تمارين الذاكرة.

نتوسّل بالمعجم في قواعد الإملاء، وفي الشروح، ولكن أيضاً لتحصيل كلمات جديدة وفي معرفة المترادفات والأضداد.

أمّا الكتابُ المقدّس، فيصلحُ للقراءة الجهورة، ولتمارين الإملاء وتمارين الذاكرة. هكذا حفظنا غيباً صفحات بأكملها من الكتاب المقدّس.

وعلى هذا المنوال يجري درسٌ في التأليف:

نجلسُ إلى الطاولة في المطبخ، أمامنا الأوراق المربّعة والأقلام ودفترنا الكبير. نكون بمفردنا.

يقول أحدنا:

- عنوان موضوعك هو: «الوصول إلى بيت الجدّة».

يقول الآخر:

- عنوان موضوعك هو: «أشغالنا».

ونشرع في التحرير. أمامنا ساعتان لإتمام الموضوع وورقتان للكتابة.

بعد ساعتين نتبادل أوراقنا. كلّ واحدٍ يصحّح أخطاء الآخر الإملائية، مستعيناً بالمعجم. ويكتبُ أسفل الصفحة: «جيد»، أو «ليس جيداً». إذا كان الموضوع «ليس جيّداً» نقذف بالموضوع المؤلّف إلى النّار، ونحاولُ إعادة كتابة الموضوع نفسه في الدرس الموالي. أمّا إذا كان الموضوع «جيّداً»، فإنّنا ننقله على الدّفتر الكبير.

ولكي نحكم على الموضوع بأنّه «جيّد» أو «ليس جيّداً»، هناك قاعدة بسيطة: على التأليف أن يكون حقيقياً، أي أن يطابق الواقع. ينبغي أن نصف ما هو كائنٌ فعلياً، أن نصف ما نراه، وما نسمعه، وما نفعله.

مثَلُ ذلك، ممنوع أن نكتبَ: «الجدّة تُشبهُ مشعوذةً»؛ بيد أنّه من المسموح كتابة: «النّاسُ ينعتون الجدّة بالمشعوذة.»

ممنوع كتابة: «المدينة الصغيرة جميلة»، لأنّ المدينة الجميلة قد تكون جميلة في أعيننا، قبيحةً في أعين غيرنا.

قِس عليه أن نكتب: «الجندي الوصيفُ لطيفٌ»، هذا الكلام ليس حقيقياً، لأنّ من الوارد أن يكون الجندي الوصيف قادراً على ارتكاب الشرور التي لا قبلَ لنا بها. سنكتُب إذن ببساطة: «أعطانا الجندي الوصيفُ أغطيةً».

سنكتب: «نأكل الكثير من البندق»، وليسَ «نحبُّ البندق»، لأنّ الفعلَ «أحبَّ»، فعلٌ غير مضبوط، فعلٌ تعوزه الدّقة

والموضوعية. «أن نحبّ البندق»، و«أن نحبّ أمّنا»، صيغتان لا تنطويان على المعنى نفسه. فالصيغة الأولى تقصدُ مذاقاً رائعاً في الفم، بينما تشيرُ الثانية إلى إحساس.

الكلمات التي تصفُ الأحاسيسَ تظلُّ مبهمة؛ الأحرى إذن الإعراض عنها، والانصراف إلى وصف الأشياء، ووصف الآدميين ووصف أنفسنا، لنَقُل الانصراف إلى وصف الوقائع وصفاً أميناً.

جارتنا وابنتها

جارتنا أقلّ هرماً من جدّتنا. تسكن وابنتها في آخر بيوت المدينة الصغيرة. منزلهما كوخٌ حقيرٌ متداعٍ تماماً، وسقفه مخروم في غير ما مكان. تحوط منزلهما حديقة، غير أنّها ليست حديقة مزروعة مثل حديقة الجدّة. فلا تنبت فيها غير الأعشاب الضّارة.

تجلس الجارة سحابة يومها في الحديقة على مقعد، تحدّق أمامها في شيء مّا لا نعرفه. وفي المساء، عندما تُمطر تسحبها ابنتها من ذراعها وتدخلها إلى البيت. لكن، أحياناً، تنساها ابنتها، أو تكون غائبة، فتبقى الأمّ في الخارج اللّيل بأكمله، كيفما كان الطّقس.

يقول النّاس إنّ جارتنا مجنونة، يقولون إنّها فقدت عقلها حين هجرها الرّجل الذي تسبّب في حملها.

تقول جدّتي إنّ الجارة ليست سوى امرأة كسولة تفضّل حياة الفقر على العمل.

لا تفوقنا ابنة الجارة حجماً، بيد أنّها أكبر سنّاً. أثناء النّهار تتسوّل في المدينة أمام الحانات وعند زوايا الأزقّة. وفي السّوق تجمع الخضر والفواكه الفاسدة، التي يرميها النّاس، وتحملها إلى

المنزل. تسرق كذلك كلّ ما تطاله يدّها. طردناها غير ما مرّة من حديقتنا، حيث كانت تحاول سرقة الفواكه أو البيض.

مرّة باغتناها تمتصّ الحليب مباشرة من خِلف إحدى عنزاتنا.

عندما رأتنا، انتصبت واقفةً، ومسحت فمها بظاهر يدها ثمّ تراجعت للخلف وقالت:

- لا تُؤذياني.

أضافت:

- أنا سريعة الرّكض. لن تتمكّنا من إمساكي.

حدّقنا فيها. كانت تلك أوّل مرّة ننظرُ إليها فيها عن قرب. فمها أشبة بخطم الأرنب، عينها حولاء، يسيل المخاط من أنفها، وعند زوايا عينيها الحمراوين يتجمّع العمش الأصفر. ذراعاها وقدماها قصيرة ومتقرّحة.

قالت:

- يسمُّونني خطمَ الأرنب. أحبُّ الحليب.

ابتسمت عن أسنان سوداء:

- أحبُّ الحليب، لكن ما أحبّه أكثر هو مصّ الأخلاف. ما أحلى هذا! صلبٌ وليّن في الآن نفسه.

لم نحر جواباً. اقتربتْ.

- أحبّ أيضاً مصّ أشياء أخرى.

مدّت يدها، تراجعنا إلى الخلف. قالت:

- أ لا تريدان؟ أ لا تريدان اللّعب معي؟ كم أودّ هذا. أنتما جميلان.

أحنت رأسها وقالت:

- أنا أثير اشمئزازكما.

قلنا:

- كلاّ. أنت لا تثيرين اشمئزازنا.

- أرى أنّكما صغيران وشديدا الخجل. لكن معي، لا تخجلا. سأعلّمكما ألعاباً مرحة جداً.

قلنا لها:

- نحن لا نلعب أبداً.

- ما الذي تفعلانه إذن، طيلة النّهار؟

- نشتغل، وندرس.

- أمّا أنا فأتسوّل، وأسرق، وألعب.

- تعتنين أيضاً بأمّك. أنت فتاة صالحة.

قالت وهي تزداد دنوّاً:

- أَ حقّاً تجدان أنّني فتاة صالحة؟

- أجل. وإذا ما كنت تحتاجين شيئاً مّا، أنت أو أمّك، ما عليك إلا أن تطلبيه منّا. سنعطيك الفاكهة والخضر والسمك والحليب.

بدأت تصرخ:

- لا أريد فاكهتكما، ولا سمكَكُما، ولا حليبكما! بوسعي أن أسرق كلّ ذلك. ما أريده، هو أن تحبّاني. لا أحد يحبّني. حتّى أمّي لا تحبّني. لكن أنا أيضاً لستُ أحبُّ أحداً. حتّى أمّي وحتى أنتما! أكرهكم جميعاً!

تمرين التسوّل

إِرتدينا ملابس رثّة متّسخة، ونزعنا أحذيتنا. وسّخنا وجهينا وأيدينا. خرجنا إلى الشارع. توقفّنا وانتظرنا.

حين يمرُّ أمامنا أحد الضباط الأجانب، نرفع يُمنانا تحيّةً ونبسط اليُسرى. في أغلب الأحيان يمرّ الضابط دون أن يتوقّف، دون أن يرانا، دون أن يلتفت إلينا.

أخيراً يتوقّف أحد الضباط. يقول شيئاً بلغة لا نفهمها. يسألنا بعض الأسئلة. نبقى جامدين، بيد مرفوعة وأخرى مبسوطة. في النهاية يفتّش في جيوبه، ويستخرج قطعة نقدية وحبّة شوكولا، يضعهما على راحتينا القذرتين، ثمّ يمضي مترنّحاً.

نلبث منتظريْن.

مرّت امرأة، مدّدنا إليها يدينا. قالت:

- أيها المسكينان. ليس لديّ ما أعطيكما.

داعبت شعرنا.

قلنا:

- شكراً.

أعطتنا امرأة أخرى تفاحات، وأخرى أعطتنا بسكويتاً.

مرّت امرأة أخرى. بسطنا راحتينا، فتوقّفت وقالت:

- ألا تخجلان بالتسوّل؟ تعالا إلى منزلي، لديّ أشغال بسيطة أكلّفكما بها. أن تقطعا الحطب، مثلاً أو أن تفركا السّطح. لديكما ما يكفي من القوّة لتفعلا ذلك. ثمّ إذا اشتغلتما جيداً، سأعطيكما بعض الحساء والخبز.

أجبناها:

- لا رغبة بنا في الاشتغال لديك، سيدتي. ولا رغبة بنا في حسائك أو خبزك. لسنا جائعين.

تساءلت:

- لَمَ تتسوّلان إذن؟

- لنخبَر أيّ إحساس ينجم عن ذلك، ولكي نراقب ردّ فعل النّاس.

صرخت وهي تبتعد:

- أيها الوغدان! ما أحقره من تصرّف!

عند عودتنا إلى المنزل، رمينا، على العشب الذي يحفّ الطريق، بالتفاح والبسكويت والشوكولا وقطع النقود.

أما المداعبة على شعرنا، فقد كان من المستحيل رميها.

خطمُ الأرنب

كنا نصطاد بالقصبة في النّهر. جاءت خطم الأرنب راكضة. لم تُبصرنا. استلقت على العشب ورفعت تنورتها. لم تكن ترتدي تبّاناً. رأينا مؤخرّتها العارية والزغب بين فخذيها. ليسَ لدينا بعدُ زغب بين الفخذين. خطم الأرنب لها زغب بين فخذيها، لكنّه زغبٌ خفيف.

صفّرت خطم الأرنب. جاءَ كلبٌ. إنّه كلبُنا. أخذته بين ذراعيها وأخذت تتمرّغ وإيّاه على العشب. نبح الكلب وابتعد عنها، انتفض ثم ركض هارباً. أخذت خطم الأرنب تناديه بصوت ناعم وهي تداعب عانتها بأصابعها.

عاد الكلب، تشمّم عانة خطم الأرنب أكثر من مرّة، ثمّ بدأ يلعقها.

باعدت خطم الأرنب ما بين فخذيها، ضغطت رأس الكلب وبطنها بيديها كلتيهما. أخذت تشهق بصوت عال وهي تتلوّى.

بدأ شيء الكلب يبرزُ، كبيراً أكثر فأكثر، رفيعاً وأحمرَ. رفع الكلبُ رأسه وحاول اعتلاء خطم الأرنب.

استدارت خطم الأرنب. قامت على أربع وأخذت تمدّ

مؤخرتها للكلب. وضع الكلب قائمتيه الأماميتين على ظهر خطم الأرنب، بينما قدماه الخلفيتان ترتعدان. يتحسّس باحثاً، يزداد اقتراباً، ينتصبُ بين فخذي خطم الأرنب ويلتصق بمؤخرتها. تتحركّ بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف. خطمُ الأرنب تصرخ، ثمّ بعد مدّة تهوي على بطنها.

يبتعد الكلب ببطء.

تبقى خطم الأرنب مستلقية لمدة، ثمّ تقوم، تلمحنا فتحمرّ. تصرخ:

- أيها المتطفّلان القذران! ماذا رأيتما؟

أجبنا:

- رأيناك تلعبين وكلبنا.

سألتنا:

- أما زلتُ صديقتكما؟

- أجل. ونسمح لك باللعب مع كلبنا، أنّى شئتِ.

- ولن تُخبرا أحداً بما رأيتما؟

- نحن لا نقول أبداً شيئاً لأحد. بإمكانك الوثوق بنا.

جلست على العشب وأجهشت:

- وحدها الحيوانات تحبُّني.

سألناها:

- أ حقّاً أمّك مجنونة؟

- كلاّ. هي فقطِ صمّاء وعمياء.

- ما الذي حدث لها؟

- لا شيء. لا شيء يستحق الذكر. أصيبت ذات يوم بالعمى، ثمّ بعدها صارت صمّاء. تقول بأنّي سألقى المصير نفسه. هل لاحظتما عينيّ؟ عندما أستيقظ صباحاً تكون أجفاني ملتصقة وعيناايّ مليئتان بالقيح.

قلنا:

- أكيدٌ أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مرضاً بوسع الطبّ معالجته.

قالت:

- ربمّا. لكن ما السبيل إلى الطبيب دون نقود؟ وفي كلّ الأحوال، ليس ثمّة أطبّاء. كلّهم غادروا إلى الجبهة.

سألناها:

- ماذا عن أذنيك؟ هل تؤلمك أذناك؟

- كلاّ، لا مشكلة لي مع أذنيّ. وأحسب أنّ أمّي كذلك. هي فقط تتظاهر بعدم السمع، وهذا يجنّبها الإجابة على أسئلتي.

تمرين العمى والصّمم

أحدنا يلعبُ دور الأعمى، والآخر دور الأصمّ. في البداية، لكي نتمرّن، كان الأعمى يضع على عينيه شالاً أسود يعود لجدّتي، بينما يسدّ الأصمّ أذنيه بالعشب. الشال الأسود ينزُّ نتانة مثل جدتي.

نخرج، يداً في يد، لنتجوّل عندما تنطلق صفارات الإنذار، بينما النّاس مختبئون في القباء، والشوارع مقفرة.

يصفُ الأصمّ ما يراه:

- الشارع مستقيم وطويل. تحفّه المنازل الواطئة التي لا طوابق فوقها. المنازل مختلفة الألوان بين أبيض ورمادي ووردي وأصفر وأزرق. عند طرف الشارع نرى حديقة بأشجار ونافورة. السماء زرقاء تعبرها بعض السحب البيضاء. هناك طائرات. خمس طائراتٍ قصفٍ، تحلّق منخفضة.

يتحدّثُ الأعمى ببطء حتّى يستطيع الأصمّ قراءة الكلام على شفتيه:

- إنّي أسمع الطائرات. يصدر عنها صوت متشنج وعميق. تبدو محركاتها متعبة. هي محمّلة بالقنابل. الآن قد مرّت. ها أنا

ذا أسمع من جديد صوت العصافير. كلّ ما عدا ذلك يغرق في الصّمت.

يقرأ الأصمّ على شفتيّ الأعمى ويجيب:

- أجل، الشارع خالٍ.

يقولُ الأعمى:

- لن يدوم هذا. إنّي أسمع، جهة الشارع الجانبي يساراً، وقع خطوات تقترب.

يجيبُ الأصمُّ:

- أنت محقّ. هو ذا قد ظهر. إنّه رجل.

يسألُ الأعمى:

- كيف يبدو؟

يجيبُ الأصمّ:

- مثلما يبدون جميعاً، فقيراً وهرِماً.

يقولُ الأعمى:

- عرفتها. أستطيع تمييز خطوات المسنّين. أسمع أيضاً وقع قدميه الحافيتين، هو إذن فقيرٌ.

يقولُ الأصمّ:

- هو أصلعٌ. يرتدي بزّة عسكرية بالية. سرواله قصيرٌ جداً. رجلاه متسختان.

- وعيناه؟

- لا أراهما. هو ينظرُ إلى الأرض.

- فمُه؟

- شفته ملتفة إلى الداخل بشكل مبالغ فيه. يبدو أنّه لا يملك أسناناً.

- ويداه؟

- يداه في جيبيه. جيوبه واسعة وممتلئة بشيء مّا. ربمّا هي ممتلئة بالبطاطس أو بالبندق، فهي تشفّ عن نتوءات. هو ذا يرفع رأسه وينظر جهتنا. لا أستطيع تمييز لون عينيه.

- أَ لا ترى شيئاً آخر؟

- على وجهه تجاعيد عميقة كأنّها ندوب.

يقول الأعمى:

- تتناهى إلى سمعي صفارات سيارات الشرطة. إنها نهاية الإنذار. لنعُد.

فيما بعد، وبمرور الوقت، ما عدنا نحتاج شالاً للأعين ولا عشباً للآذان. الذي يلعبُ دور الأعمى يوجه بصره، ببساطة، إلى الداخل، أمّا الأصم فيقفل أذنيه دون أيّ ضجيج.

الفارُّ من الخدمة العسكرية

صادفنا رجلاً في الغابة. رجلاً حيّاً، رجلاً شاباً بدون زيّ عسكري. كان مستلقياً خلف دغل. ينظرُ إلينا دون أن تندّ عنه حركة.

سألناه:

- لماذا تظلُّ في مكانك، مستلقياً؟

أجابنا:

- لم أعد أستطيع المشي. جئتُ من الجهة الأخرى للحدود. أتمشّى منذ أسبوعين. ليلاً ونهاراً. خاصة كلّما جنّ اللّيل. أنا الآن منهك تماماً. أنا جائع. لم آكل شيئاً منذ أيام ثلاثة.

سألناه:

- لماذا لا ترتدي بدلة عسكرية؟ كلّ الرجال الشبان يرتدون بدلات عسكرية. كلّهم جنود.

قال:

- لم أعد أريد أن أكون جندياً.

- لم تعد تريد أن تحاربَ العدوّ؟

- لا أريد أن أحاربَ أحداً. لا أعداء لي. أريد العودة إلى دياري.

- أين هي ديارك؟

- ما تزالُ بعيدة. لن أبلغها إن لم أجد ما آكله.

سألناه:

- لِمَ لا تذهب لشراء ما تأكل؟ أ لا تملكُ نقوداً؟

- لا نقود معي. ولا أستطيع أن أُظهر نفسي. عليّ الاختباء. لا ينبغي أن يراني أحد.

- لِمَ؟

- تركت فرقتي دون إذن. هربتُ. أنا جنديّ فارٌ من الخدمة العسكرية. إذا ما أمسكوني، سأرمى بالرّصاص أو أُشنق.

تساءلنا:

- مثلَ قاتلٍ؟

- أجل مثلَ قاتلٍ.

- ومع ذلك، أنت لا تريد أن تقتل أحداً. كلّ ما تريده هو العودة إلى ديارك.

- أجل. أن أعود لدياري فقط لا غير.

سألناه:

- ما تريد أن نحملَ لك لتأكله؟

- أيّ شيء.

- حليب العنزة. بيض مسلوق. خبزٌ. فاكهة؟

- أجل، أجل، أيّ شيء.

سألناه:

- أ لا تريدُ غطاءً؟ اللّيالي باردة وكثيراً ما تمطر.

قال:

- أجل. لكن ينبغي ألاّ يراكما أحد. لن تقولا شيئاً لأحد، أليس كذلك؟ حتّى لأمّكما؟

أجبنا:

- لن يرانا أحدٌ، ولن نخبر أحداً، وليست لدينا أم.

عندما عدنا بالطّعام والغطاء، قال لنا:

- أنتما لطيفان.

قلنا:

- لا نريد أن نكون لطيفين. لقد حملنا لك هذه الأشياء، لأنّك في حاجة ماسّة إليها. وهذا كلّ ما في الأمر.

أضاف:

- لا أدري كيف أشكركما. لن أنساكما أبداً. واغرورقت عيناه بالدّموع.

قلنا له:

- أوَ تعلم؟ الدموع لا تفيد في شيء. نحن لا نبكي أبداً. هذا على الرّغم من أننا لسنا بعد رجلين مثلك.

ابتسم وقال:

- أنتما محقّان. آسف، لن أفعلها مرّة أخرى. كان هذا بسبب التعب فقط.

تمرين الصّوم

أعلمنا جدّتنا:

اليوم وغداً، لن نأكل شيئاً. سنكتفي بشرب الماء.

هزّت كتفيها، وقالت:

- لا أبالي للأمر. لكنّكما ستشتغلان كالعادة.

- بالطبع، جدّتي.

في اليوم الأول، ذبحت دجاجة، وشوتها في الفرن. وفي الظهيرة نادتنا:

- تعالا لتأكلا!

دلفنا إلى المطبخ. كانت الرائحة شهيّة. كنّا جائعين، لكن ليس إلى درجة كبيرة. تابعنا الجدّة وهي تقطّع الدجاجة.

قالت:

- كم هي شهيّة هذه الرائحة! هل شممتما كم هي شهيّة؟ هل ترغبان في فخذ لكلّ واحد منكما؟

- لا نريد أيّ شيء، جدّتي.

- هذا مؤسفٌ، لأنّها فعلاً شهيّة.

أكلت الدجاجة بيديها ولعقت أصابعها ثمّ مسحت يديها في مئزرها.

إِمتشّت العظام ومصّتها.

قالت:

- طريّة جداً هذه الدجاجة. ليس بوسعي تخيّل أفضل من هذا.

قلنا:

- جدّتي، منذ أن حللنا ببيتك، لم تطبخي لنا قطّ دجاجة.

ردّت:

- طبختها اليوم، لكنّكما لم تأكلا.

- كنت تعلمين بأنّنا لن نأكل شيئاً اليوم، ولا غداً.

- هذا ليس خطئي. تلك مجدّداً إحدى حماقاتكما.

- هذا أحد تمارييننا. نريد التعوّد على الجوع.

- تعوّدا إذن. لا أحد يمنعكما من ذلك.

غادرنا المطبخ، وذهبنا ننجز الأشغال في الحديقة. عندما شارف المساء على الانتهاء، كنّا نشعر فعلاً بالجوع. شربنا الكثير من الماء. وفي اللّيل لم نستطع النوم بسهولة، وحلمنا بالطعام.

ظهيرة اليوم الموالي، أكملت الجدّة التهام الدجاجة. كنّا نتابعها تلتهمها وكأنّنا نتابع مشهداً غائماً. لم نعد نحس بالجوع. كنّا نحسّ بالدوار.

مساءً، أعدّت الجدّة فطائر بالمربّى والجبن الأبيض. كنّا نشعر بالغثيان ونحسّ تشجّنات في معدتينا. لكن ما إن وضعنا رأسينا

على الوسادة حتّى غرقنا في نوم عميق. لمّا استفقنا كانت الجدّة قد غادرت إلى السوق. أردنا تناول فطورنا، لكن لم نجد شيئاً يؤكل في المطبخ. ليس ثمة خبز، ولا حليبٌ، ولا جبن. غلّقت الجدّة القبو دون كلّ شيء. بوسعنا أن نفتح القبو، بيد أنّنا قرّرنا أن لا نلمس شيئاً. تناولنا بعض الطماطم والخيار النيّئة مع الملح.

عند عودتها، قالت الجدّة:

- لم تقوما بعملكما هذا الصباح.

- كان عليك إيقاظنا، جدّتي.

- عليكما أن تنهضا وحدكما. لكن مع ذلك، سأمنحكما اليوم، استثناءً، الطعام.

أعدّت لنا، كعادتها حساء بما فضل من خضر. أكلنا قليلاً. بعد الوجبة، قالت الجدّة:

- إنّه تمرين غبيّ. وضارٌّ بالصحّة.

قبرُ الجدّ

ذات يوم، لمحنا الجدّة تغادر المنزل، حاملة مرشّها وأدوات البستنة خاصتها. لكن بدلَ أن تقصد حقل الكروم، اتّخذت وجهة أخرى. تبعناها عن بعد لنعرف أين هي ذاهبة.

دخلت مقبرةً. توقفّت أمام قبر، ووضعت عدّتها. كانت المقبرة خالية، إذ لم يكن فيها غير الجدّة ونحن الاثنين.

اختبأنا خلف الشجيرات وشواهد القبور، وبدأنا نقترب شيئاً فشيئاً. نظرُ الجدّة حسيرٌ وعينها ضعيفة، لذا بوسعنا مراقبتها دون أن ترتاب لشيء.

كانت تنزع من القبر الأعشاب الضارة، وتنبش تربته وتسوّيها بمجرفة صغيرة، وتزرع فوقه الأزهار، ثمّ تذهب لتجلب الماء من البئر وتسقيه.

عندما فرغت من عملها، لمّت عدّتها وقرفصت أمام الصليب الخشبي، جالسة على كاحليها. شبكت يديها إلى الأمام، كأنها في وضعية صلاة، بيد أنّ ما سمعناه لم يكن صلاة، وإنّما كان بالأحرى سباباً:

- حقيرٌ... نذل... خنزير... قذر... ملعون...

لمّا انصرفت الجدّة، ذهبنا نلقي نظرة على القبر، كانت أمارات الاعتناء واضحة عليه. نظرنا إلى الصليب: كان الاسم المكتوب على الشاهدة، اسمَ جدّنا، وهو نفسه الاسم الذي كانت تحمله أمّنا حين كانت ما تزال عزباء. اِسم الجدّ مركبٌ من اسمين تفصلهما عارضة، والاسمين هما نفسهيما الاسمين اللذين نحملهما نحن الاثنين.

على الشاهدة أيضاً تاريخ الولادة وتاريخ الوفاة. استنتجنا أنّ الجدّ قد توفي منذ ثلاث وعشرين سنة وكان عمره أربعة وأربعون عاماً.

مساءً، سألنا الجدة:

- كيف كان جدّنا؟

قالت:

- كيف؟ ماذا؟ ليس لديكما جدّ.

- لكن كان لنا جدّ فيما مضى.

- لا، أبداً. عندما وُلدتما كان قد مات. لذا لم يكن لديكما جدٌ أبداً.

سألناها:

- لماذا سمّمته؟

تساءلت:

- من أين تأتيان بهذه القصص؟

- يقول النّاس بأنّك سمّمت جدّنا.

- الناس يقولونَ... الناسُ يقولون... اتركاهم يقولون.

- ألم تسمّميه؟

- أُغربا عن وجهي يا ابنيْ الكلبة! لم يستطع أحدٌ إثبات ذلك! الناسُ يحكون أيّ شيء!

أضفنا:

- نعرفُ أنّك لا تحبين جدّنا. لماذا إذن تعتنين بقبره؟

- هكذا دون سبب! بسبب ما تلوكه ألسنة النّاس، حتّى يتوقفوا عن الكلام والكلام. وكيف علمتما أنّني أعتني بقبره، هه؟ تلصصتما عليّ يا ابني الكلبة، تلصصتما عليّ مجدّداً! ليأخذكما الشيطان!

تمرين القسوة

إنّه الأحد. أمسكنا دجاجة ونحرنا عنقها، مثلما رأينا الجدّة تفعل. حملناها إلى المطبخ وقلنا:

- جدّتي، يجبُ طبخها.

بدأت تصرخ:

- من سمح لكما؟ لا يحقّ لكما ذلك! أنا من يحكم هنا، أيها القذران! لن أطبخها! أفضّل الموت على ذلك!

قلنا:

- الأمر سيّان. سنطبخها بنفسينا.

بدأنا ننتف ريش الدجاجة، لكنّ الجدّة اختطفتها من بين أيدينا:

- لا تعرفان كيف تفعلان هذا! أيها الوغدان، أنتما سبب شقائي، عقابٌ إلهي حلّ بي، هذا ما أنتما عليه!

بينما كانت الدجاجة تنضج، كانت الجدة تجهش بالبكاء:

- كانت تلك أفضل دجاجة. أخذا عمداً أفضل الدجاجات. كانت جاهزة لسوق الثلاثاء.

بينما كنّا نأكل الدجاجة، كنّا نردّد:

- شهيّة هذه الدجاجة. سنأكل دجاجاً كلّ أحد.

- كلّ أحد؟ هل جننتما؟ تريدان إفلاسي؟

- سنأكل دجاجة كلّ أحد، شئت ذلك أم أبيتِ.

أجهشت الجدّة:

- لكن ما الذي فعلته لهما؟ سُحقاً! يريدان موتي. أنا امرأة مسكينة لا حول لي ولا قوّة. لا أستحّق هذا. أنا التي أعاملهما بطيبة بالغة!

- أجل جدّتي، أنت طيّبة، طيّبة جداً. ولطيبتك ستطبخين لنا دجاجة كلّ يوم أحد.

عندما استعادت هدوءها، أضفنا:

- عندما ترغبين في قتل حيوان مّا، عليك أن تنادينا. نحن من سيتكفّل بالأمر.

قالت:

- تحبّان ذلك، هه؟

- كلاّ جدتي، إنّنا لا نحبّ ذلك. ولهذا السبّب يتوجّب علينا أن نعتاد الأمر.

قالت:

- فهمت. هو إذاً أحد تمارينكما الجديدة. أنتما محقّان. ينبغي أن نعرف كيف نَقتل حين يلزم ذلك.

بدأنا بالأسماك. كنا نمسكها من ذيلها ونضربها مع الأحجار. وسريعاً ما اعتدنا قتل الحيوانات المنذورة للأكل: الدجاج والأرانب والبطّ. بعدها شرعنا في قتل حيوانات لم يكن من

الضروري قتلها. أمسكنا الضفادع، وضعناها فوق قطعة خشبية، وبقرنا بطونها. أمسكنا كذلك الفراشات وعلقناها بالدبابيس على قطعة كرتون. ولم يمض وقت طويل حتّى صارت لدينا مجموعة مميّزة.

ذات يوم، شنقنا قطّنا تحت غصن شجرة. كانَ قطاً أصهب. عندما شنقنا الهرَّ تمطّى وتضاعف حجمه. شرع يهتزّ وينتفض. وعندما توقف تماماً عن الحركة، أطلقناه. بقيَ ممدداً على الأرض، دون حركة، ثمّ، فجأة، قام وانصرف مهرولاً.

من حينها، صرنا نلمحه من حين لآخر، من بعيد، لكنّه لم يجرؤ أبداً على الاقتراب من المنزل. لم يعد يأتي حتّى ليشرب الحليب الذي كنّا نضعه في صحن أمام الباب.

قالت جدّتي:

- هذا القطّ يزداد توحشاً يوماً بعد آخر.

قلنا:

- لا عليك جدّتي. نحن نتصدّى للفئران.

نصبنا فخاخاً، وتلك الفئران التي كانت تسقط فيها، كنّا نغرقها في الماء المغلي.

الأطفالُ الآخرون

كنّا نصادفُ أطفالاً آخرين في المدينة الصغيرة. ولأنّ المدرسة مقفلة، يقضي هؤلاء الأطفال سحابة يومهم في الخارج. منهم الكبار والصّغار. بعضهم من هنا، وآباؤهم هنا، والبعض الآخر، كما هو حالنا، يأتي من أماكن أخرى، خاصة المدينة الكبيرة.

أغلبُ هؤلاء الأطفال تمّ إيواؤهم لدى أشخاص لم يكونوا يعرفونهم من قبل. يضطرون للعمل في الحقول وفي بساتين الكروم، وأولئك الذين يأوونهم ليسوا دائما طيّبين معهم.

عادة ما يعتدي الأكبر سنّاً على الأصغر. يسلبونهم كلّ ما تحويه جيوبهم، وأحياناً حتّى ملابسهم. يضربونهم أيضاً، خاصةً منهم أولئك القادمين من مناطق أخرى. صغارُ هذه المدينة تحميهم أمهاتهم، ولا يخرجون أبداً دون رفقة.

لا أحد يحمينا نحن. تعلّمنا الدفاع عن أنفسنا ضد اعتداءات الكبار.

صنعنا أسلحة: قددنا الحجارة، ملأنا الجوارب بالرمل والحصى. نملك أيضاً موسى حلاقة، وجدناها في العليّة جنب الكتاب المقدّس. يكفي أن نخرج الموسى لكي يفرّ الكبار.

ذات يوم قائظ، كنّا جالسيْن قرب النافورة التي يقصدها أولئك الذين لا يملكون آباراً، ليتزوّدوا بالماء. قريباً منّا كان بعض الأطفال الأكبر سنّا مستلقين على العشب. الهواء هنا منعش، تحت الظلال وقرب الماء الذي يسيل دون توقّف.

جاءت خطمُ الأرنب حاملةً دلواً. وضعت الدلو أسفل الصنبور الذي يسيل منه خيط ماء رفيع، وبدأت تنتظر أن يمتلئ.

عندما امتلأ الدلو، قام أحد الأولاد وبصق فيه. دلقت خطم الأرنب ماء الدلو ونظّفته، ثم أعادته أسفل الصنبور.

اِمتلأ الدلو من جديد. قام ولدٌ آخر وبصق فيه. أعادت خطم الأرنب وضع الدلو تحت ماء الصنبور بعدما دلقت ماءه ونظّفته مجدّداً. لم تنتظر هذه المرّة أن يمتلئ. اكتفت بملئه حتى النّصف، ثم خطفته بسرعة، وحاولت الهرب.

ركض خلفها أحد الأولاد، وأمسكها من ذراعها ثمّ بصق في الدلو.

قالت خطم الأرنب:

- كفّوا عن ذلك! عليّ أن أحمل إلى المنزل ماءً نظيفاً وقابلاً للشرب.

قال الولدُ:

- ولكنّ الماء نظيف. لم أفعل سوى البصق فيه. لن تبلغي حدّ ادعاء أنّ بصاقي قذرٌ. بصاقي أنظف من كلّ ما في بيتكم.

أفرغت خطم الأرنب دلوها، وانخرطت في البكاء.

فتح الولدُ سحاّب سرواله وقال:

- اِلعقي! إذا لعقت سنتركك تملئين دلوك.

جثمت خطم الأرنب، فتراجع الولد:

- هل تعتقدين بأنّي سأضع قضيبي في فمك المقرف؟ أيّتها القذرة!

رفس صدرها بقدمه وأقفل سحّاب سرواله.

اِقتربنا. أعنّا خطم الأرنب على الوقوف، أخذنا الدلو، نظفناه جيّداً ثم وضعناه أسفل الصنبور.

قال أحد الأولاد مخاطباً أصحابه:

- هيّا بنا لنمرح في مكان آخر.

أجاب آخر:

- هل جننت؟ الآن فقط سيبدأ المرح.

قال الأول:

- أتركهما وشأنهما. إنّي أعرفهما، هما خطران.

- خطران؟ هذان الوغدان الصغيران؟ سأتكفّل بهما أنا. ستريان!

تقدّم يقصدنا، وفي نيّته البصق في الدلو، لكنّ أحدنا عرقله بقدمه، والآخر ضربه على رأسه بكيس رمل. سقط الولد. بقي أرضاً بلا حراك. صديقاه يراقباننا. اقترب أحدهما خطوة نحونا، فيما صاح الآخر:

- إحذر! هذان الوغدان يستطيعان فعل أيّ شيء. ذات مرّة فلقا صدغي بحجر. يملكان أيضاً موسى حلاقة، ولا يتورّعان عن استعمالها. سيذبحانك دون تردّد. إنّهما مجنونان.

ذهب الولدان.

ناولنا خطم الأرنب دلوها. سألت:

- لماذا لم تساعداني في حينها؟

- أردنا أن نرى كيف ستدافعين عن نفسك.

- ما الذي كنت أملكه إزاء ثلاثة أولاد كبار؟

- كان بإمكانك أن ترمي الدلو فوق رؤوسهم، وأن تخمشي وجوههم، وأن ترفسيهم بقدميك بين الخصيتين، وأن تصرخي وتصيحي. أو أن تهربي وتعودي فيما بعد.

الشّتاء

يزداد الجو برودة أكثر فأكثر. فتّشنا حقائبنا، وارتدينا كلّ ما وجدناه تقريباً: عدّة كنزات والعديد من السراويل. بيد أنّنا لم نستطع انتعال حذاء آخر فوق نعالنا البالية والمليئة بالثقوب. ونحن أصلاً لا نملك غيرها. لا نملك كذلك قُفّازاً ولا قلنسُوة. اِمتلأت أيدينا وأرجلنا تقرّحات بسبب البرد.

السماء رمادية غامقة، والشوارع مقفرة، والنهر متجمّد، والغابة يغطيها الثلج. ما عدنا نستطيع الذهاب للغابة، ولن يمضي الكثير حتّى يعوزنا الحطب.

قلنا للجدّة:

- نحتاج إلى زوجيْ حذاء من المطاط.

أجابت:

- ماذا تريدان أيضا؟ أنّى لي بالنقود؟

- لكن يا جدّتي، كاد الحطب ينفد.

- ما عليكما إلا اقتصاده.

ما عدنا نخرج. صرنا نقوم بكلّ أنواع التمارين، ننحت أشكالاً في الخشب، ملاعقَ وألواحاً، وليلاً ندرس حتّى وقت

متأخر. تقضي الجدّة أغلب يومها في السرير، ولا تأتي إلى المطبخ إلا لماماً، وهذا يريحنا.

ما عدنا نأكل جيّداً. لم يعد ثمّة خضر ولا فواكه. لم تعد الدجاجات تبيض. تُخرج الجدّة كلّ يوم من القبو بعضَ الفاصوليا المجفّفة والقليل من البطاطس، وهذا على الرّغم من أنّ القبو مليء باللّحم المدخّن وببرطمانات المربّى.

يأتي ساعي البريد من حين لآخر. يظلّ يرّن جرس دراجته حتّى تخرج الجدّة من المنزل. عندها يبلّل ساعي البريد قلمه، يكتبُ به شيئاً على ورقة، ثمّ يمدّ القلم والورقة إلى الجدّة. تضع الجدة علامة أسفل الورقة. يسلّمها الساعي النقود وطرداً بريدياً أو رسالة، ثمّ يعود إلى المدينة وهو يصفّر.

تقفل الجدّة على نفسها في الغرفة ومعها النقود والطرد، وإن كان ثمّة رسالة ترميها إلى النّار.

سألناها:

- جدّتي، لماذا ترمين الرسالة دون قراءتها؟

أجابت:

- لا أعرف القراءة. لم أذهب يوماً إلى المدرسة. لم أفعل شيئاً في حياتي سوى العمل. لم أكن طفلة مدلّلة مثلكما.

- بوسعنا أن نقرأ لك الرسائل التي تصلك.

- كلاّ، رسائلي لا ينبغي أن يقرأها أحد.

سألنا:

- من يبعثُ النقود؟ من يرسل الطرود؟ من يرسل الرسائل؟

لم تحر جواباً.

في اليوم الموالي، بينما كانت الجدّة في القبو، فتّشنا في غرفتها. وجدنا تحت السرير علبة مفتوحة. كان في العلبة كنزات وأوشحة وقلنسوات وقفازات. لم نقل شيئاً للجدّة، لأنّها ستعرف حينها أنّنا نملك مفتاحا يفتح غرفتها.

بعد وجبة العشاء انتظرنا إلى أن شربت الجدّة ماء-الحياة ثم انصرفت مترنّحة إلى غرفتها، فتحت باب الغرفة بالمفتاح المعلّق بحزامها. تبعناها ودفعناها من الخلف. سقطت على السرير، فتظاهرنا بأننا نبحث عن العلبة قبل أن نجدها.

قلنا:

- ليس هذا التصرّف لطيفاً يا جدّتي. نعاني البرد وتعوزنا الملابس الدافئة. لم نعد نستطيع الخروج، وأنت تريدين الاحتفاظ بكلّ ما حاكته أمّنا وأرسلته لنا.

لم تجب الجدّة، أخذت تبكي.

- أمّنا هي من يبعث بالنقود ومن يكتب الرسائل.

قالت الجدّة:

- هي لا تكتب لي. هي تعرف أنّني لا أعرف القراءة. لم تكتب لي فيما سبق. والآن لأنّكما هنا، صارت تكاتبني. لكنّني غنيّة عن رسائلها! لا أحتاج أيّ شيء يأتي من عندها!

ساعي البريد

من حينها صرنا ننتظر ساعي البريد عند باب الحديقة. هو رجلٌ مسنٌ يعتمر قبعة. له دراجة بكيسين جلديين معلّقين عند حامل الأمتعة.

لمّا وصل، لم نمنحه فرصة أن يرنّ، أسرعنا بتفكيك جرس دراجته.

قال:

- أين هي جدّتكما؟

قلنا له:

- لا تهتمّ لأمرها. أعطنا ما جلبته معك.

قال:

- ليس ثمّة شيء.

أراد الانصراف، بيد أنّنا أوقعناه أرضاً. سقط على الثلج وسقطت دراجته فوقه. بدأ يتوعّد.

فتشنا كيسيه، فوجدنا رسالة وحوالة بريدية. أخذنا الرسالة وقلنا:

- هات النقود!

قال:

- كلاّ، هي مرسلة إلى جدّتكما.

قلنا:

- لكنّها مرسلة في الواقع إلينا. أمّنا هي التي ترسلها. إذا لم تعطنا النقود سنمنعك من الوقوف، وستبقى على الثلج حتى تموت من البرد.

قال:

- حسناً حسناً. ساعداني على النهوض، فقدمي ترزح تحت ثقل الدراجة.

رفعنا الدراجة، وساعدنا ساعي البريد على النهوض. جسده ناحلٌ ووزنه خفيف.

أخرج النقود من أحد جيوبه وأعطانا إياها.

سألناه:

- هل تريد توقيعاً، أم فقط علامة؟

قال:

- علامة تكفي. علامة تناظر علامة أخرى.

أضاف:

- من حقّكما أن تدافعا عن نفسيكما. الكلّ يعرف جدّتكما. لا يوجد من هو أكثر بخلاً منها. هي أمّكما إذن من يرسل كلّ هذه الأشياء؟ إنّها شديدة اللّطف. عرفتها صغيرة. حسناً فعلت بترك هذه المدينة. لم تكن لتتزوّج لو أنّها بقيت هنا. مع وجود كلّ ما يحكيه النّاس...

سألناه:

- ماذا يحكون؟

- يقولون أشياء من قبيل، أنها سمّمت زوجها. أقصد، جدّتكما سمّمت جدّكما. تلك قصّة قديمة. وبسبب ذلك يناديها الناس المشعوذة.

قلنا:

- لا نريد أن تُرمى جدّتنا بسوء.

أدار ساعي البريد دراجته وقال:

- حسناً حسناً. كان يلزم أن تعلما.

قلنا:

- كنّا على علم أصلاً بذلك. من الآن فصاعداً، ستسلّم البريد إلينا. وإلا قتلناك. هل فهمت؟

قال:

- أعرف أنكما تستطيعان ذلك، يا بذرتيْ الإجرام. سأسلّمكما بريدكما. الأمر سيّان عندي. لستُ أبالي للمشعوذة.

ذهب يدفع دراجته. وكان يجرّ قدمه لكي يُظهر أنّنا آلمناه.

في الغد، ارتدينا ملابس ثقيلة وذهبنا إلى المدينة لشراء أحذية مطاطية بالنقود التي أرسلتها أمّنا. أمّا رسالتها فكنّا نتبادل حملها تحت السترة.

الإسكافي

يسكن الإسكافي ويشتغل في قبو منزل قرب المحطّة. القبو واسع. في ركن منه هناك سريرهُ وفي ركن آخر المطبخُ. يطلّ مشغله على النافذة التي تحاذي الأرض. يجلسُ الإسكافي على مصطبة واطئة مُحاطاً بالأحذية وأدوات العمل. نظرَ إلينا من فوق نظارتيه، ونظر إلى نعلينا المبرنقين المتهالكين.

قلنا:

- صباح الخير سيّدي. نريد حذاءين طويلين من المطاط، مقاومين للماء ودافئين. هل تبيع مثل هذه الأحذية؟ لدينا نقود.

قال:

- أجل أبيعها. بيد أنّ الأحذيّة المضاعفة السُمك، الأحذية الدافئة غالية الثمن.

قلنا:

- نحتاج إليها ضرورةً. نحسّ البرد في أقدامنا.

وضعنا على الطاولة الواطئة ما لدينا من نقود.

قال الإسكافي:

- هذه النقود تكفي فقط لشراء حذاء واحد. لكنّ حذاءً واحداً يكفيكما. لكما نفس مقاس القدمين، ستخرجان بالتناوب.

- مستحيلٌ. لا يخرجُ أحدنا دون الآخر. حيثما ذهبنا نذهبُ معاً.

- أُطلبا إذن المزيد من النقود إلى والديكما.

- ليس لدينا والدان. نسكن لدى جدّتنا التي ينادونها المشعوذة. لن تعطينا النقود أبداً.

قال الإسكافي:

- المشعوذة هي جدّتكما؟ مسكينان! و جئتما من بيتها بهذين النعلين!

- أجل جئنا بهما. لا نستطيع قضاء الشتاء دون أحذية طويلة. يلزم علينا الذهاب لإحضار الحطب من الغابة؛ ويجب أن نزيح الثلج. نحتاجُ ضرورة إلى...

- إلى حذاءين طويلين دافئين ومقاومين للماء.

ضحك الإسكافي وناولنا حذاءين مطاطين:

- جرّبا هذين.

جرّبناهما. كانا مناسبين لمقاس أقدامنا.

قلنا:

- سنأخذهما. وسندفع لك ثمن الحذاء الثاني في الربيع، حين نبيع بعض السمك والبيض. أو، إذا كنت تفضّل، جلبنا لك بعض الحطب.

أعاد لنا الإسكافي نقودنا:

- خذا. إستعيدا مالكما. لا أريده. الأحرى أن تشتريا به جوارب جيّدة. سأمنحكما هذين الحذاءين لأنكما في حاجة ماسة لهما.

قلنا:

- لا نحبُّ قبول الهدايا.

- ولمَ؟

- لأنّنا لا نحب أن نقول شكراً.

- لستما مضطرين لقول أيّ شيء. اذهبا. كلاّ، انتظرا! خذا أيضاً هذه الشباشب وهذه الصنادل الصيفية، وهذه النعال الطويلة. إنّها شديدة المتانة. خذا ما شئتما.

- لكن، لمَ تريد أن تعطينا كلّ هذا؟

- لم أعد بحاجة إليه. سأرحل عمّا قريب.

سألناه:

- إلى أين أنت راحلٌ؟

- كيف لي أن أعلم؟ سيأخذونني ويقتلونني.

سألناه:

- من ذا الذي سيقتلك؟ ولمَ؟

قال:

- لا تطرحا المزيد من الأسئلة. اِرحلا الآن.

أخذنا النعال والشباشب والصنادل. الأحذية المطاطية كنّا قد انتعلناها. توقفنا أمام الباب وقلنا:

- نتمنّى الاّ يأخذوك. وإن أخذوك الاّ يقتلوك. وداعاً سيدي، وشكراً، شكراً جزيلاً.

عند عودتنا سألتنا الجدّة:

- من أين سرقتما كلّ هذه الأشياء يا رقبتيْ المشنقة؟

- لم نسرق شيئاً. إنّها هديّة. ليس كلّ النّاس بخلاء مثلك جدّتي.

السَّرقة

بفضل أحذيتنا المطاطية وملابسنا الدافئة صار بوسعنا الخروج من جديد. كنّا نتزحلق فوق النهر المتجمّد، ونذهب لجلب الحطب من الغابة.

نحمل معنا فأساً ومنشاراً. لم يعد بالإمكان جمع الحطب المتساقط على الأرض، فطبقة الجليد شديدة السمك. نتسلّق الأشجار ونقطع الأغصان الميتة بالمنشار ثمّ نقدّها بالفأس. أثناء اشتغالنا لا نحسّ بالبرد، لا بل إنّنا نتفصّد عرقاً. لذلك كنّا ننزع قفازينا ونضعهما في جيوبنا حتّى لا يبليا بسرعة.

ذات يوم، ونحن في طريق عودتنا للمنزل، انعطفنا لنزور خطم الأرنب.

كان الثلج متراكماً أمام الكوخ، ولا أثرَ قدمٍ عليه. لا دخان، كذلك، ينبعث من المدخنة.

طرقنا الباب. لم يجبنا أحد. دخلنا. في البداية لم نكد نستبين شيئاً، لشدّة الظلام، بيد أنّ عيوننا سرعان ما ألفت العتمة.

كنّا في غرفة، هي في الآن نفسه مطبخ وغرفة نوم. وفي

الزاوية الأشد عتمة كان ثمّة سرير. إقتربنا. نادينا. تحرّك أحدهم تحتَ الأغطية والملابس البالية؛ برزت رأس خطم الأرنب.

سألناها:

- هل أمّك هنا؟

قالت:

- أجل.

- هل ماتت؟

- لستُ أدري.

وضعنا حزمتينا وأوقدنا النار في الفرن، إذ كان جوّ الغرفة لا يقلّ برودة عن طقس الخارج. انصرفنا بعدها إلى بيت الجدّة، حيث أخذنا القليل من البطاطس وبعض الفاصوليا الجافة، وحلبنا إحدى العنزات، ثمّ عدنا إلى بيت الجارة. سخّنا الحليب وأذبنا القليل من الثلج في قِدر ثمّ طهونا الفاصوليا. أمّا البطاطس فشويناها في الفرن.

قامت خطم الأرنب مترنّحة، وجاءت لتجلس قرب النّار.

لم تكن الجارة ميّتة. سكبنا بعضاً من حليب العنزة في فمها. وقلنا لخطم الأرنب:

- عندما ينضج الطعام كُلي وأطعمي أمّك. سنعود.

بتلك النّقود التي أعادها لنا الإسكافي اشترينا جواربَ، بيد أنّنا لم نصرفها كلّها. ذهبنا إلى إحدى المتاجر كي نشتري دقيقاً، ونأخذ القليل من الملح والسّكر دون أن ندفع ثمنهما. ذهبنا كذلك إلى الجزار، وهناك اشترينا بعض اللّحم المقدّد، وأخذنا قطعة

نقانق كبيرة دون أن ندفع ثمنها. عدنا إلى بيت خطم الأرنب، كانت هي وأمّها قد أتتا على الطّعام كلّه. ظلّت الأمّ في سريرها، بينما خطم الأرنب تغسل الأواني.

قلنا لها:

- سنحملُ لك حزمة حطب كلّ يوم. وكذلك بعض الفاصوليا والبطاطس. أمّا الباقي فتلزمنا النّقود للحصول عليه، لأن ما من طريقة لدخول المتجر دون نقود. ينبغي شراء شيء مّا لسرقة شيء آخر.

قالت:

- كم أنتما ماكران. أنتما محقّان. أنا لا يسمحون لي حتّى بدخول المتاجر. لم أكن لأتخيّل أنّكما قادران على السّرقة.

قلنا:

- ولمَ؟ سيكون ذلك تمريناً لشحذ مهارتنا. نحتاج إلى بعض النقود، نحتاج إليها ضرورة.

فكّرت قليلاً ثمّ قالت:

- اِذهبا إلى السيّد خوري الكنيسة. فهو يعطيني نقوداً أحياناً حين أوافق على أن أريه فلقي.

- هل يطلب منك ذلك؟

- أجل. وأحياناً يضع أصبعه فيه. وبعدها يعطيني النقود كي لا أخبر أحداً بذلك. قولا له إنّ خطم الأرنب وأمّها بحاجة إلى النّقود.

المساومة

ذهبنا إلى السيّد الخوري. يسكن لصق الكنيسة، في منزل كبير يدعى دار الخوري.

سحبنا حبل الجرس. فتحت الباب امرأة عجوز:

- ماذا تريدان؟

- نريد رؤية السيّد الخوري.

- لمَ؟

- أحدهم ينازعُ.

أدخلتنا العجوز إلى مَضْيَفة. نقرت أحد الأبواب وصاحت:

- السيّد الخوري. يحتاجون إليك لتشهد مسحة أخيرة.

أجاب صوتٌ من خلف الباب:

- أنا قادم. فلينتظروني.

اِنتظرنا دقائق. خرج من الباب رجلٌ طويلٌ ناحل العود قاسي الملامح. يرتدي ما يشبه عباءة بيضاء مذهّبة فوق ملابسه القاتمة. سألنا:

- أين يجري الاحتضار؟ من بعثكما؟

- خطم الأرنب وأمّها.

قال:

- أسألكما الأسماء المضبوطة.

- لا نعرف الأسماء المضبوطة. الأمّ عمياء وصمّاء. تسكن آخر بيوت المدينة. إنّهما تموتان من الجوع والبرد.

- على الرّغم من أنّني لا أعرفّ عمّن تتحدثان، لكنّني مستعدٌ لمرافقتكما حتّى أشهد مسحتهما الأخيرة. هيّا، دُلاّني على المنزل.

قلنا:

- لا تحتاجان بعدُ إلى المسحة الأخيرة. تحتاجان إلى بعض النّقود. حملنا لهما بعض الحطب، والقليل من البطاطس والفاصوليا الجافة، بيد أنّنا لم نستطع أن نقدّم لهما أكثر من ذلك. أرسلتنا إليك خطم الأرنب. قالت إنّك تعطيها من حين لآخر بعض النّقود.

قال الخوري:

- الأمر واردٌ. فأنا أعطي الكثيرَ من الفقراء نقوداً. لا يمكن أن أتذكّرهم جميعاً. خذا!

فتشّ في جيوبه تحت العباءة وأعطانا بعض القطع. أخذناها وقلنا:

- هذا قليل. قليل جداً. لن يكفي هذا المبلغ حتّى لشراء رغيف خبز.

قال:

- آسفٌ. هناك الكثير من الفقراء. ولم يعد المؤمنون يعطون

هِبات. كلّ النّاس يعانون الشدّة هذه الأيام. اِذهبا وليبارككما الرّب!

قلنا:

- من الممكن أن نكتفي بهذا المبلغ اليوم. لكنّنا مضطران للعودة غداً.

- كيف؟ ماذا يعني هذا؟ غداً؟ غداً، لن أدعكما تدخلان. انصرفا حالاً.

- غداً، سنقرع الجرس حتّى تسمح لنا بالدخول. سنطرق النوافذ، ونضرب الباب بأقدامنا، وسنحكي للجميع ما فعلته بخطم الأرنب.

- لم أفعل قطّ شيئاً بخطم الأرنب. لست أعرف حتّى من تكون. لقد حكت لكما أشياء اخترعتها من عند نفسها. لن يحمل أحدٌ كلام طفلة معتوهة محملَ الجدّ. لن يصدّقكما أحد. كلّ ما تحكيه عارٍ من الصّحة!

قلنا:

- لا يهمّ أن يكون الأمر صحيحاً أم زائفاً. المهم هو التشهير. النّاس يحبّون الفضائح.

جلس الخوري على كرسي ومسح وجهه بمنديل.

- هذا فظيع. هل تدركان على الأقل ما أنتما بصدد الإقدام عليه؟

- أجل سيّدي. إنّنا نساومك.

- في سنّكما هذه... الأمر يبعث على الرّثاء.

- أجل، من الباعث على الرّثاء أن نضطر إلى فعل هذا. لكنّ خطم الأرنب وأمّها في حاجة ماسّة إلى النّقود.

قام الخوري، نزع عباءته وقال:

- إنّه امتحان من الرّب. كم تريدان؟ لستُ غنيّاً.

- عشر أضعاف المبلغ الذي أعطيتنا. لا نطلب منك مستحيلاً.

أخرج من جيبه نقوداً وأعطانا إيّاها:

- تعالا كلّ سبت. لكن لا تخالا أنّي أفعل هذا خضوعاً لمساومتكما. إنّما أفعله بدافع الرّأفة.

قلنا:

- وهذا بالضبط ما نأمله فيك، سيّدي الخوري.

إتّهامات

ذات ظهيرة، دخل الجندي الوصيف إلى المطبخ. لم نكن قد رأيناه منذ مدّة. قال:

- أنتما يأتي يساعد إفراغ السيارة العسكرية؟

إنتعلنا حذاءينا المطّاطيين، وتبعناه حتّى السيّارة العسكرية المتوقّفة على الطريق أمام باب الحديقة. بدأ الجندي يناولنا صناديق وعلب كرتون نحملها إلى غرفة الضابط.

سألناه:

- هل سيأتي الضابط هذا المساء؟ لم يسبق لنا أن رأيناه.

قال الجندي الوصيف:

- الضابط لا يأتي الشتاء هنا. ربما لا يأتي أبداً. هو عنده لوعة الحبّ. ربما عثر على أحد آخر فيما بعد. نسي. هذه القصص لا يناسبكما. أنتما يحمل الحطب لتدفئة الغرفة.

حملنا الحطب وأوقدنا النّار في المدخنة المعدنية الصغيرة. فتح الجندي الوصيف الصناديق وعلب الكرتون وأخرج زجاجات نبيذ وزجاجات ماء-الحياة وقناني البيرة، إضافة إلى عديد الأشياء

القابلة للأكل: نقانق ومصبّرات ولحماً وخضراً وأرزاً وبسكويت وشوكولاتة وسكّراً وبناً.

فتح الجنديّ الوصيف زجاجة وبدأ يشرب، وقال:

- أنا، يسخّن المصبّرات في القدر بالكحول. هذا المساء، أكل، شربَ، غنّى مع الرّفاق. احتفل بالنصر على العدوّ. قريباً نربح الحرب بفضل السلاح الجديد المعجزة.

سألناه:

- توشك الحرب إذاً على الانتهاء؟

قال:

- أجل. سريعاً. لماذا تنظران هكذا إلى طعام على الطاولة؟ إذا كان أنتم جائعاً، يأكل الشكولاطة والبسكويت والنقانق.

قلنا:

- هناك أنّاس يموتون من الجوع.

- وبعدُ؟ لا يُفكّر في هذا. الكثير من النّاس يموت بسبب الجوع أو أشياء أخرى. لا يفكّر في هذا. نحن يأكل ولا يموت.

أخذ يقهقه. قلنا:

- نعرف امرأة عمياء وصمّاء تسكن قريباً من هنا هي وابنتها، ولا يستطيعان مقاومة هذا الشتاء.

- هذا ليس خطأ أنا.

- بلى، إنّه خطؤك وخطأ بلدك، أنتم من جلب الحرب.

- قبل الحرب كانا يفعل ماذا ليأكل، هذه العمياء وابنتها؟

- قبل الحرب كانا يعيشان على الصدقات. كان النّاس

يعطونهم ملابس بالية وأحذية مستعملة. وكانوا يعطونهم ما يأكلونه. اليوم لم يعد أحد يعطي شيئاً. بات النّاس جميعهم فقراء أو يخشون أن يتحوّلوا إلى فقراء. حوّلتهم الحرب إلى بخلاء وأنانيين.

صاح الجندي الوصيف:

- أنا لا يعنيه كلّ هذا! اِجلسا! أنتما يصمت!

- أجل أنت لا تبالي للأمر، وتأكل طعامنا.

- ليس طعامكم. أنا يأخذ هذا من مخزن الثكنة.

- كلّ ما على هذه الطاولة من خيرات بلدنا: المشروبات والمصبّرات والبسكويت والسكّر. بلدنا هو الذي يطعم جيشكم.

اِحمّر وجه الجندي الوصيف، جلس على السرير وأسند رأسه إلى كفيّه وقال:

- تظنّان أنا يريد الحرب وأن يأتي إلى بلدكم الحقير؟ أنا في بلدي أفضل بكثير، هانئ البال يصنع الكراسي والطاولات. يشرب خمر البلد ويمرح مع فتيات لطيفات بنات البلد. هنا، الكلّ شرير، حتّى أنتما الطفلان الصغيران. تقولان كلّ شيء خطئي؟ أنا، ماذا يستطيع أن يفعل؟ إذا قال أنا لا يذهب إلى الحرب، لا يأتي إلى بلدكما، أنا يطلقون عليّ النار. أنتما يأخذ كلّ شيء، هيّا، يأخذ كلّ شيء من على الطاولة. الحفلة انتهى، أنا حزين، أنتما شريران جداً.

قلنا:

- لا نريد أخذ كلّ شيء، فقط بعض المصبّرات والقليل من

الشوكولا. لكن بإمكانك أن تجلب من حين لآخر، على الأقل في فترة الشّتاء، بعض الحليب المجفّف والدقيق وأيّ شيء آخر يمكن أكله.

قال:

- حسناً. أستطيع ذلك. أنتما يذهب معي غداً إلى بيت العمياء. لكن أنتما لطيفان معي بعد ذلك. أليس بلى؟

- بلى.

بدأ الجندي الوصيف يقهقه من جديد. وصل رفاقه. انصرفنا نحن، وبقينا نسمعهم يغنّون اللّيل بأكمله.

خادمة الخوري

ذات صباح، والشتاء يوشك ينقضي، كنّا جالسين في المطبخ مع الجدّة. سمعنا طرقاً على الباب، ثمّ دخلت امرأة شابّة. وقالت:

- صباح الخير. جئت أبحث عن بعض البطاطس كي...

توقّفت عن الحديث، أخذت تنظر إلينا:

- ما أظرفهما!

أخذت مقعداً، وجلست:

- تعالَ هنا، أنت.

لم نتحرّك.

- أو تعالَ أنت.

لم نتحرّك. قالت:

- هيّا تعالا، اِقتربا، هل أخيفكما؟

قلنا:

- لا أحد يخيفنا.

اِقتربنا منها. قالت:

- يا إلهي! ما أجملكما! لكن، كم أنتما متّسخان!

سألتها الجدّة:

- ماذا تريدين؟

- بعض البطاطس للسيد الخوري. لماذا أنتما متّسخان إلى هذا الحد؟ ألا تحمّمينهما أبداً؟

أجابت الجدّة غاضبة:

- الأمر لا يعنيك. لماذا لم تأتِ العجوز بدلك؟

ضحكت المرأة الشّابة من جديد:

- العجوز؟ لقد كانت أصغر سنّاً منك. غير أنّها توفيت أمس. كانت عمّتي. وأنا من يخلفها الآن في دار الخوري.

قالت جدّتي:

- كانت تكبرني بخمس سنوات. إذاً هكذا، ماتت... كم تريدين من البطاطس؟

- عشرة كيلوغرامات، أو أكثر. وأيضاً بعض التّفاح. وكذلك... ماذا لديك أيضاً؟ صار الخوري ناحلاً مثل مسمار، ولم يبق في حجرة مؤنه شيء.

قالت الجدّة:

- كان عليه أن يفكّر في ذلك أثناء الخريف.

- هذا الخريف لم أكن بعد في بيته. لم آت بيته إلا أمس مساءً.

قالت الجدّة:

- أنّبهك إلى أنّ كلّ ما يؤكل يصير باهظ الثمن في هذه الفترة من السنة.

ضحكت المرأة الشابة مرّة أخرى وقالت:

- حدّدي الثمن الذي يناسبك. لا خيار لدينا. ما عاد ثمّة شيء تقريباً في المتاجر.

- وعمّا قريب لن يبقى ثمّة شيء، في أيّ مكان.

نفخت الجدّة وخرجت. بقينا بمفردنا مع خادمة الخوري.

سألتنا:

- لماذا لا تستحمّان أبداً؟

- ليس في بيتنا حمّام، وليس ثمّة صابون. لا إمكانية للاستحمام.

- وملابسكما! يا للفظاعة! أليست لديكما ملابس غير هذه؟

- لدينا بعض الملابس في الحقائب أسفل المصطبة. لكنّها جميعاً متّسخة وممزقة. الجدّة لا تغسلها أبداً.

- المشعوذة إذاً جدّتكما؟ توجد حقاً معجزات!

عادت الجدّة تحمل كيسين:

- ثمن هذا قطعتا فضّة وقطعة ذهب. لا أقبل الأوراق، لأنّها على وشك أن تفقد كلّ قيمتها، ستصير مجرّد أوراق.

سألت الخادمة:

- ماذا في الكيسين؟

أجابت الجدّة:

- طعام. إمّا أن تأخذيه أو تتركيه.

- سآخذه. سآتيك بالنقود غداً. هل يمكن أن يساعدني الصغيران في حمل الكيسين؟

- يستطيعان إن أرادا. لا يوافقان على ذلك دائماً. ولا يطيعان أحداً.

سألتنا الخادمة:

- أنتما موافقان أليس كذلك؟ سيحمل كلّ واحد منكما كيساً، بينما أحمل أنا حقائبكما.

تساءلت الجدّة:

- عن أيّ حقائب تتكلّمين؟

- سأنظّف ملابسهما المتّسخة. وسأحملها غداً مع النّقود.

نفخت الجدّة متذمّرة:

- نظّفي ملابسهما إن كان في الأمر ما يمتعك...

رافقنا الخادمة. سرنا خلفها حتّى دار الخوري. كنّا نرى جديلتيها الشقراوين، السميكتين والطويلتين، تتراقصان فوق شالها الأسود. كانتا تصلان حدّ خصرها. ردفاها كانا يرقصان تحت تنورتها الحمراء. بالإمكان رؤية جزء من ساقيها ما بين التنورة والحذاء الطويل. الجوربان الشفّافان أسودان، وعلى الجورب الأيمن بدأ خيط يتسرّب.

الحمّام

وصلنا إلى دار الخوري رفقة الخادمة. أدخلتنا من الباب الخلفي. وضعنا الأكياس في حجرة المؤن وقصدنا غرفة الغسيل. كانت الغرفة مليئة بالحبال المشدودة التي تنتظر أن يعلّق عليها الغسيل، وكان ثمّة حاويات من كلّ الأشكال، بما فيها حوض استحمام من الزّنك غريب المظهر، كأنّه كنبة مقعّرة.

فتحت الخادمة حقيبتينا، وغمرت ملابسنا في الماء، ثمّ أوقدت ناراً لتسخّن الماء في قدرين كبيرين. قالت:

- سأغسل فوراً ما تحتاجان إليه ضرورةً. وبينما تستحمّان ستنشف الملابس. وسأحمل لكما ما تبقى من ثياب غداً أو بعد غد. إذ ينبغي أيضاً كيّها.

سكبت ماءً مغلياً في الحوض، ثمّ أضافت إليه ماءً بارداً:

- من أوّلاً؟

لم نحرّك ساكناً. قالت:

- أنت، أم أنت؟ هيّا اخلعا ملابسكما!

سألناها:

- هل تريدين أن تبقيْ هنا، بينما نستحمّ؟

ضحكت بصوت عالٍ:

- أبقى هنا؟ بل سأفرك ظهريكما بنفسي، وأغسل شعركما. لا تقولا أنّكما ستخجلان منّي! إنّي في سنّ أمّكما.

لم نحرّك ساكناً مع ذلك. عندها، بدأت تخلع ملابسها:

- كما تشاءان إذاً. أنا من سيبدأ. أرأيتما، ها أنا ذي لا أخجل أمامكما. لستما سوى طفلين صغيرين.

أخذت تدندن، بيد أنّ وجهها احمرّ حين انتبهت إلى أننا كنّا نراقبها. كانت تملك نهدين مشدودين ومستقيمين، كأنّهما كرتان لم يُفرغ من نفخهما بعدُ. بشرتها شديدة البياض، ويملأ جسمها زغب أشقر، ليسَ فقط بين الفخذين وتحت الذراعين، ولكن أيضاً على البطن والردفين. استمرت تغنّي في الماء وهي تفرك جلدها بليف. ولمّا خرجت من الحوض، ارتدت بسرعة روباً، ثمّ بدّلت ماء الحوض، وبدأت تنظّف الغسيل بعدما أولتنا ظهرها. عندئذ تعرّينا ودخلنا الحوض معاً. كان هنالك ما يكفي من المساحة في الحوض ليسعنا معاً.

بعد مدّة، ناولتنا الخادمة منشفتين بيضاوين كبيرتين:

- آمُل أنّكما قد فركتما بعضكما جيّداً، وفي كلّ مناطق جسميكما.

جلسنا على الدكّة، ملفوفين في منشفتينا، في انتظار أن تجفّ ملابسنا. كانت حجرة الغسيل تفور بالدّخان، وشديدة الحرارة.

دنَت منّا الخادمة وفي يدها مقصّ:

- سأقصّ أظافركما. وكفّا عن التصرّف بتوجّس، فأنا لن ألتهمكما.

قصّت أظافر يدينا وأظافر قدمينا، وحلقت أيضاً شعر رأسينا، وقبّلتنا في وجهينا وعنقينا؛ ولم تتوقّف عن الكلام:

- أوه! يا لهذه الأقدام الصغيرة، الظريفة والنظيفة! أوه! وهذه الآذان الرائعة، وهذا العنق البضّ، البض إلى هذا الحدّ! أوه! كم أتمنى أن يكون لي ولدان جميلان إلى هذا الحدّ ورائعان، ولي وحدي! كنتُ سأدغدغهما في كامل جسمهما، في كامل جسمهما.

كانت تداعب جسمنا كلّه وتمطره بالقبل. وكانت تدغدغنا بلسانها في العنق وأسفل الذراعين وبين الأليتين. جثمَت أمام الدّكة وأخذت تلعق قضيبينا اللّذين أخذا يكبران ويتصلّبان داخل فمها.

هي ذي الآن جالسة بيننا؛ تضمّنا إليها:

- لو كان لي طفلان بهذا الجمال، كنت سأعطيهما حليباً يشربانه، حليباً محلّى، هنا، هنا، هكذا.

جرّت رأسينا نحو نهديها اللّذين أطلاّ من الرّوب، وأعطتنا حلمتيها الورديتين نمتصّهما، وقد غدتا صلبتين. أدخلت الخادمة يدها تحت الروب وأخذت تفرك ما بين فخذيها:

- كم هو مؤسفٌ ألاّ تكونا أكبرَ سنّاً! أوه! كم هو رائع، كم هو رائع اللّعب معكما!

أخذت تتنهّد وتلهث، ثمّ فجأة تشنّج وجهها.

عندما هممنا بالانصراف، قالت:

- ستعودان كلّ سبت لتستحمّا، وتأخذان ملابسكما معكما. أريد أن أراكما دائماً نظيفين.

قلنا:

- سنحمل لك الحطب مقابل هذه الخدمة. وبعض السمك والفطر إن توفّر.

الخوري

في السبت الموالي، عدنا للاستحمام. بعدها قالت لنا الخادمة:

- تعالا للمطبخ. سأعدّ الشاي، ونأكل الشطائر.

وكنّا نأكل الشطائر حين دخل علينا الخوري.

قلنا:

- صباح الخير يا سيّدي.

قالت الخامة:

- هذان هما مكفوليَّ، يا أبتِ. هما حفيدا المرأة العجوز التي يسمّونها المشعوذة.

قال الخوري:

- أعرفهما. تعالا معي.

سرنا خلفه. اِجتزنا غرفة خاوية إلا من طاولة كبيرة مستديرة تحفّها الكراسي، وصليب معلّق على الحائط. ثمّ دلفنا إلى غرفة معتمة تغطّي جدرانها الكتب حتّى السّقف. مقابل الباب كان هناك مركع[٤] وصليب معلّق؛ وقرب النافذة، مكتبٌ؛ ثمّ سرير ضيّق

---

(٤) مقعد خفيضٌ جداً. يستعملُ للصلاة.

عند زاوية من الغرفة، وثلاثة كراسي مرصوصة لصق الحائط. وهذا كلّ أثاث الغرفة.

قال الخوري:

- لقد تبدّلتما كثيراً. أنتما نظيفان جداً. تبدوان مثل ملاكين. اِجلسا.

قرَّب إلى مكتبه كرسيين، جلسنا عليهما. بينما جلس هو خلف مكتبه. ناولنا مظروفاً:

- هي ذي النّقود.

ونحن نستلم النّقود منه، قلنا:

- عمّا قريب تصير في حلٍّ من إعطاء النّقود. ففي الصّيف تستطيع خطم الأرنب تدبّر أمرها.

قال الخوري:

- كلاّ. سأستمرّ في مساعدة هاتين المرأتين. أشعر بالخجل من نفسي لأنّي لم أفعل ذلك قبلاً. ماذا لو تحدّثنا الآن عن أشياء أخرى؟

أخذ ينظرُ إلينا؛ ظللنا صامتين. قال:

- لا أراكما أبداً في الكنيسة.

- لا نذهبُ إليها.

- هل تصلّيان من حين لآخر؟

- لا، نحن لا نصلّي.

- أيتها النعجتان المسكينتان. سأصلّي لأجلكما. هل تعرفان القراءة على الأقلّ؟

- أجل سيّدي. إنّنا نعرف القراءة.

ناولنا الخوري كتاباً:

- خذا، إقرآ هذا. ستجدان فيه قصصاً جميلة عن المسيح وعن حياة القديسين.

- تلك القصص نعرفها أصلاً. لدينا الكتاب المقدّس. قرأنا العهدين؛ الجديد والقديم.

رفع الخوري حاجبيه الأسودين:

- كيف؟ قرأتما الكتاب المقدّس بأكمله؟

- أجل سيّدي حتّى أنّنا نحفظ العديد من المقاطع عن ظهر قلب.

- مثل ماذا؟

- بعض المقاطع من سفر التكوين ومن سفر الخروج؛ من سفر الجامعة ومن سفر الرّؤيا، وغيرها.

صمت الخوري برهة، ثمّ قال:

- تعرفان إذن الوصايا العشر. هل تلتزمان بها؟

- كلاّ سيدي، لا نلتزم بها. لا أحد يلتزم بها. جاء في الكتاب المقدّس: «لا تقتل أبداً». لكنّ الجميعَ يقتلون.

قال الخوري:

- للأسف... هي الحربُ.

قلنا:

- نودّ قراءة كتب أخرى غير الكتاب المقدّس، لكن لا كتب لدينا. سماحتك لديك كتبٌ. هل تستطيع إعارتنا بعضها؟

- إنّها كتبٌ معقّدة بالنسبة لسنّكما.

- هل هي أكثر تعقيداً من الكتاب المقدّس؟

تفرّس فينا الخوري، ثمّ قال:

- أيّ نوع من الكتب تريدان قراءته؟

- كتب تاريخ وكتب جغرافيا. كتُب تحكي عن أشياء واقعية وليس عن أشياء مصطنعة.

قال الخوري:

- السبت القادم سأكون قد حضّرتُ لكما كتباً تناسبكما. أتركاني وحيداً الآن. عودا إلى المطبخ لإنهاء شطائركما.

الخادمة والجندي الوصيف

كنّا نقطف الكرز مع الخادمة في الحديقة. وصل الجندي الوصيف والضابط الأجنبي في سيّارة عسكرية. توجّه الضابط الأجنبي رأساً إلى عرفته، بينما توقّف الجندي الوصيف قربنا. قال:

- صباح الخير الصديقان الصّغيران، صباح الخير الآنسة الجميلة. الكرز صار ناضجاً؟ أنا يحبّ الكرز كثيراً، أنا يحبّ كثيراً الآنسات الجميلات.

نادى الضابط من النافذة. اضطرّ الجندي الوصيف للدخول.

قالت:

- لمَ لم تخبراني أنّ في بيتكم رجالاً؟

- إنّهما غريبان.

- وماذا بعدُ؟ كم هو وسيم هذا الضابط!

سألناها:

- ألم يعجبكِ الجنديّ الوصيف؟

- إنّه قصيرٌ وبدين.

- لكنّه لطيفٌ ومرخ. ويحسن تكلّم لغتنا.

قالت:

- لا آبه لذلك. الضابط هو الذي يعجبني.

خرج الضابط، واقتعد الدكّة تحت نافذته. كانت سلّة الخادمة قد امتلأت كرزاً، ما يعني أنّها كانت تستطيع العودة إلى دار الخوري، لكنّها فضّلت البقاء. كانت تنظر إلى الضابط وتضحك بملء صوتها. تعلّقت بغصن شجرة، وأخذت تتأرجح، وتقفز، ونامت على العشب، وفي الأخير رمت الضابط بزهرة أقحوان. عندئذ قام الضابط ودخل غرفته. وبعدها بقليل خرج وانصرف في السيارة العسكرية.

أطلّ الجندي العريف من النافذة وصاح:

- من أتى يساعد الرجل المسكين لتنظيف حجرة متسّخة جداً؟

قلنا:

- نوّد مساعدتك.

قال:

- أحتاج امرأة للمساعدة. أحتاج الآنسة الجميلة.

قلنا للخادمة:

- تعالي. لنساعده قليلاً.

ذهبنا ثلاثتنا إلى غرفة الضابط. أخذت الخادمة المكنسة وبدأت تكنس. جلس الجندي الوصيف على السرير وقال:

- أنا حَلُم. أميرة، أنا رأى في حلم. أميرةٌ يجبُ أن يقرصني لأستيقظ.

ضحكت الخادمة وقرصت خدّ الجندي الوصيف بعنف.

صرخ الجندي الوصيف:

- أنا، استيقظ الآن. أنا أيضا يريد أن يقرص الأميرة الشريرة.

أخذ الخادمة بين ذراعيه وقرص مؤخّرتها. أخذت الخادمة تتمنّع، لكنّ الجنديّ الوصيف كان يضمّها إليه بقوّة. قال لنا:

- أنتما، أخرجا! واقفلا الباب خلفكما.

سألنا الخادمة:

- هل تريدين منّا أن نبقى؟

ضحكت:

- ولِمَ؟ أستطيع الدفاع عن نفسي بمفردي.

غادرنا إذن الغرفة، وأقفلنا الباب خلفنا. ظهرت الخادمة عند النافذة، ابتسمت لنا وأرخت الستائر ثمّ أقفلت النافذة. صعدنا إلى العليّة، ومن الثقوب راقبنا كلّ ما يجري في غرفة الجنديّ الوصيف.

الخادمة والجندي الوصيف مضطجعان على السرير. الخادمة عارية تماماً؛ بينما لا يحتفظ الجندي الوصيف سوى بقميصه وجواربه. هو نائم فوقها، ومعاً يتحرّكان إلى الأمام والخلف، ويمنة ويسرةً. الجندي الوصيف يشخر كخنزير الجدّة، والخادمة تصرخُ كأنّ أحداً يؤذيها، بيد أنّها تضحك أيضاً، في الآن نفسه، وتصيحُ:

- أجل، أجل، أجل، آه، آه، آه!

من يومها صارت الخادمة تتردّد كثيراً على بيتنا. تأتي وتغلق

الغرفة دونها والجندي الوصيف. أحياناً نراقبهما، لكن ليس دائماً.

يفضّل الجندي الوصيف أن تنحني الخادمة وتقوم على أربع، بينما يأتيها من خلف.

تفضّل الخادمة أن ينام الجنديّ الوصيف على ظهره وتجلس على بطنه، ثمّ تبدأ تعلو وتنخفض، كأنّما تركب حصاناً.

ومن حين لآخر يهدي الجندي الوصيفُ الخادمةَ جوارب تحتية حريرية أو ماء كولونيا.

الضابطُ الأجنبيّ

كنّا في الحديقة ننجزُ تمريننا، تمرين الثبات وعدم الحركة. وكان الجوّ حاراً. كنّا راقدَين على ظهرينا تحت ظلّ شجرة الجوز. وخلَلَ الأشجار كنّا نبصرُ السّماء والغيوم. كانت أوراق الشّجرة ساكنة، وكذلك كانت تبدو الغيوم؛ لكنْ ما إن نحدّق فيها طويلاً وبانتباه حتّى يتبيّن أنّ أشكالها تتبدّل وأنّها تتمطّى.

خرجت الجدّة من المنزل. وإذ مرّت من أمامنا قذفت بقدمها بعض الرمل والحصى فوق وجهينا وجسدينا. تمتمت بشيء ما ثمّ انصرفت لتنعم بقيلولتها بين أشجار الكرم.

كان الضابط جالساً على الدّكة أمام غرفته، جزؤه العلوي عارٍ وعيناه مغمضتان ورأسه مستند إلى الحائط؛ تحت أشعّة الشّمس. فجأة قام وقصَدنا؛ خاطبنا، لكنّا لم نُجبه. عاد إلى دكّته.

فيما بعد، قال لنا الجندي الوصيف:

- السيّد الضابط يطلب أنتما يأتي للحديث معه.

لم نُجبهُ. قال مرّة أخرى:

- أنتما ينهض ويأتي. الضابط يغضب إذا أنتما لا يطيع.

لم نحرّك ساكناً.

قال الضابط شيئاً، فعاد الجنديّ الوصيف إلى الغرفة. سمعناه يغنّي وهو يرتّب الغرفة.

عندما لامسَ قرص الشّمس سقف المنزل جانب المدخنة، قمنا. سرنا باتّجاه الضابط، وتوقّفنا أمامه. نادى على الجنديّ الوصيف. سألناه:

- ماذا يريد؟

بدأ الضابط يطرحُ أسئلة، والجنديّ الوصيف يترجمها لنا:

- يريد السيّد الضابط أن يعرف، لماذا أنتما لا يتحرّك ولا يتكلّم؟

أجبنا:

- كنّا ننجزُ تمريننا، تمرين عدم الحركة.

ترجم الجنديّ الوصيف من جديد:

- السيّد الضابط يرى أنّكما يقوم بالكثير من التمارين. أيضاً أنواع أخرى. رآكما يضربُ أحدكما الآخر بالحزام.

- كان ذاك تمريننا على الجلَد.

- السيّد الضابط يسأل لماذا أنتما يفعل كلّ هذا؟

- لكي نعتاد على الألم.

- يسأل أنتما يتلذذ بالألم؟

- كلاّ. نريد فقط قهر الألم، والحرّ، والبرد، والجوع، قهرَ كلّ ما يؤلم.

- السيّد الضابط يقدّر أنتما. يجدُ أنتما رائعين.

أضاف الضابط بعض الكلمات. فقال لنا:

- هو ذا، انتهى. أنا، مضطر يذهب الآن. أنتما أيضاً، انصرفا، اذهبا لاصطياد السّمك.

أمسكَنا الضابط من ذراعينا وهو يبتسم وأشار للجنديّ الوصيف بالانصراف. خطا الجنديّ الوصيف بضع خطوات، ثمّ استدار وقال:

- أنتما، ينصرف! بسرعة! اذهبا إلى المدينة.

حدّق فيه الضابط فابتعد حتّى باب الحديقة وصاح مجدّداً:

- اِنصرفا، أنتما! لا يبقى! لا يفهم، أيها الغبيّان؟

انصرفَ الجنديّ الوصيف. ابتسم لنا الضابط، ثمّ أدخلنا إلى حجرته. جلس على الكرسيّ، وجرّنا نحوه، حملنا وأجلسنا على ركبتيه. وضعنا يدينا حول عنقه، وانحشرنا في صدره الأشعر. أخذ يهدهدنا.

وأسفلنا، بين فخذيْ الضابط أحسسنا حركة ساخنة. تبادلنا النظرات، ثمّ حدّقنا في عينيّ الضابط. أبعدنا عنه برفق، وخبّل شعرنا بيديه، ثمّ قام واقفاً. ناولنا سوطيْن، واستلقى على بطنه فوق السّرير. قال كلمة واحدة، فهمناها، رغم أنّنا لا نعرف لغته.

بدأنا نضربُ بالتناوب.

بدأت خطوط حمراء تتشكّل فوق ظهر الضابط. صرنا نضرب أعنف فأعنف. أخذ الضابط يتأوّه، ودون أن يغيّر وضعيّته، أنزل بنطاله وسرواله التحتيّ حتّى كاحليه. ضربنا مؤخّرته البيضاء، وردفيه، وفخذيه، وظهره، ورقبته، وكتفيه، بكلّ ما أوتينا من قوّة، فاحمرّ جسمه بأكمله.

جسد الضابط، وشعره، وملابسه، والسّتائر، والبساط، وأيدينا، وأذرعنا، كلّها صارت حمراء. بل إنّ الدم صار يتدفّق من عيوننا نفسها، ويختلط بأنفاسنا. لكنّنا لم نتوقّف عن الضرب، حتّى أطلق الرّجل صرخة أخيرة، صرخة ليست بشرية، وسقطنا منهكين عند حافة السّرير.

اللّغة الأجنبية

جاءنا الضابط بمعجم نستطيع بواسطته تعلّم لغته. بدأنا نحفظُ الكلمات، والجنديّ الوصيف يصحّح نطقنا. بعدها بأسابيع، صرنا نتحدّث هذه اللّغة الجديدة بطلاقة. لم نتوقّف عن تطوير أنفسنا، ولم يعد الجنديّ العريف ملزماً بالترجمة. الضابط راضٍ جداً عنّا. أهدانا هَرمونيكا. وأعطانا أيضاً نسخة عن مفتاح غرفته، حتّى نستطيع دخولها متّى شئنا (كنّا ندخل أصلاً بواسطة المفتاح الذي صنعناه، لكن دون أن يعلم أحد). والآن ما من داع إلى الاحتيال لدخول الغرفة، لا بل صار بوسعنا أن نفعل فيها ما نشاء: أن نأكل البسكويت والشوكولا، وأن ندخّن السجائر.

كثيراً ما نذهبُ إلى هذه الغرفة، فكلّ شيء فيها نظيف، وفيها نكون أكثر راحة من المطبخ. وهناك نقوم بواجباتنا في الغالب.

يملك الضابط فونوغرافاً وأسطوانات. نسمع الموسيقى ونحن مستلقيان على السرير. وذات مرّة لكي نُدخل السّرور إلى قلب الضابط، وضعنا نشيد بلده الوطنيّ. لكنّه غضب، وكسر الأسطوانة بقبضته.

أحياناً ننام في السرير الواسع جداً. ذات صباح وجدَنا الجنديّ العريف هناك؛ لم يكن راضياً:

- هذا تهوّر! أنتما لا يفعل حماقة مثل هذا. ماذا يقع، مرّة، إذا عاد الضابط مساءً؟

- وماذا يمكن أن يحدث؟ هناك متّسع له أيضاً.

قال الجنديّ العريف:

- أنتما أحمقان جداً. ذات مرّة، أنتما يدفع ثمن الحماقة. إذا الضابط أساء لكما، أنا يقتله.

- لن يؤذينا. لا تشغل بالك بهذا.

وذات ليلة، عاد الضابط ووجدنا نائمين على سريره. أيقظنا مصباح الغاز. سألناه:

- هل تريدنا أن نذهب للمطبخ؟

داعب الضابط شعرنا وقال:

- إبقيا. إبقيا وحسب.

خلع ملابسه ونام بيننا. أحاطنا بذراعيه وهمس في آذاننا:

- ناما. أحبّكما. ناما هانئيْن.

ونمنا. صباحاً، أردنا النهوض، لكنّ الضابط منعنا:

- لا تتحرّكا. أكملا النوم.

- نحن بحاجة لأن نبوّل. علينا أن نخرج.

- لا تخرجا. بوّلا هنا.

سألناه:

- أين؟

قال:

- بوّلا عليّ. لا تخافا. بوّلا! على وجهي.

وفعلناها، ثمّ خرجنا إلى الحديقة، لأنّ السرير صار مبتلاً تماماً. كانت الشّمس قد بدأت ترتفع؛ بدأنا أشغال الصّباح.

صديق الضّابط

يعود الضابط أحياناً رفقة صديق، ضابط آخر، أكثر شباباً. يقضيان السهرة معاً، ويبقى الصديق لينام. راقبناهما غير ما مرّة من ثقب العلية.

ذات مساء صيفيّ. كان الجنديّ العريف يطبخ شيئاً على موقد الكحول. وضع غطاءً على المائدة فيما وضعنا نحن الزّهور. كان الضابط وصديقه جالسين إلى المائدة؛ كانا يشربان. بعدها أكلا. الجنديّ العريف أيضاً تناول طعامه على مقعد قرب الباب. بعدها شربوا مرّة أخرى. في تلك الأثناء كنّا نحن نتكفّل بالموسيقى؛ كنّا نغيّر الأسطوانات ونشغّل الفونوغراف.

قال صديق الضابط:

- الصغيران يثيران عصبيّتي. أُطردهما إلى الخارج.

سأله الضابط:

- أتشعر بالغيرة؟

أجاب الصديق:

- أغار من هذين؟ من متوحشيْن صغيرين؟ أيّ فظاعة هذه!

- إنّهما جميلان. ألا ترى ذلك؟

- ربّما. فأنا لم أنظر إليهما.

- لم تنظر إليهما؟ أنظر إليهما إذاً.

إِحمرّ وجه الصّديق:

- ماذا تريد، في آخر المطاف؟ إنّهما يثيران عصبيّتي بمظهرهما الموارب هذا، وكأنّما هما يستمعان لما نقوله ويراقبانا.

- بالطّبع هما يستمعان لما نقوله. إنّهما يتكلّمان لغتنا جيداً. ويفهمان كلّ شيء.

إِمتقع وجه الضابط، وقام واقفاً:

- الأمر فاق كلّ احتمال! سأنصرف!

قال الضابط:

- لا تتصرّف ببلادة. هيّا أُخرجا أيها الصغيران.

خرجنا من الغرفة، وصعدنا إلى العليّة. أخذنا نراقب ونسمع ما يجري.

قال صديق الضابط:

- جعلتني أبدو مضحكاً أمام هذين الصغيرْين الغبيّيْن.

قال الضابط:

- هما أذكى طفليْن عرفتهما إلى الآن.

قال الصديق:

- تقول هذا لتجرحني، لتؤذيني. تفعل كلّ ما في وسعك لتعذّبني، لتذلّني. يوماً مّا سأقتلك!

وضع الضابط مسدّسه على الطاولة وقال:

- لست أتمنّى سوى هذا! خذ المسدّس واقتلني! هيّا؟

أخذ الصّديق المسدّس وصوّب جهة الضابط:

- سأفعلها. سترى ذلك. في المرّة القادمة التي تتحدّث إليّ فيها عنهُ، عن الآخر، سأقتلك.

أغمض الضابط عينيه وابتسم:

- كان وسيماً... شاباً... قويّاً... ظريفاً... لبقاً... مثقفاً... عطوفاً... حالماً... شجاعاً... معتداً بنفسه... وكنتُ أحبّه. مات في الجبهة الشرقية. كان عمره تسع عشرة سنة. لا أستطيع العيش بعده.

رمى الصديق المسدّس فوق الطاولة وقال:

- أيها النّذل!

فتح الضابط عينيه ونظر إلى صديقه:

- أيّ جبن! أي ضعف شخصيّة!

قال الصديق:

- ما عليك إلا أن تفعلها بنفسك، إذا لم تكن تعوزك الشّجاعة، وإذا كان الحزن يستبدّ بكّ إلى هذه الدّرجة، وإذا ما كنت لا تستطيع العيش بعدهُ، اتبعه حيثُ هو. أَما زلتَ تريدُ منّي أن أساعدك؟ لستُ مجنوناً لأفعلها! فلتمت! فلتمت وحدك!

أخذ الضابط المسدّس وألصقه بصُدغه. نزلنا من العلّية. كان الجنديّ الوصيف جالساً عند باب الغرفة المفتوح. سألناه:

- هل تعتقدُ أنّه سيقتل نفسه؟

ضحك الجنديّ الوصيف:

- أنتما، لا يخاف. هما، دائماً يفعل هذا عندما يشرب كثيراً. أنا، أفرغ المسدسين قبلاً.

دخلنا إلى الغرفة، وقلنا للضابط:

- بإمكاننا نحن أن نقتلك إن أردتَ ذلك حقاً. هاتِ مسدّسك.

قال الصديق:

- أيّها الحقيران!

قال الضابط مبتسماً:

- شكراً. أنتما لطيفان. كنّا نلعب فقط. اِذهبا للنوم.

قام ليغلق الباب خلفنا، فرأى الجندي الوصيف:

- أما تزال هنا؟

قال الجنديّ الوصيف:

- لم تسمح لي بعدُ بالانصراف.

- إذهب! أريد أن أنعم بالهدوء! هل فهمت؟

ومن خلف الباب كنّا نسمعه يقول لصديقه:

- أيّ درس هو لك أيّها المخنّث.

سمعنا أيضاً ضجيج معركة، وضربات، وتحطّم كراسي تُقلب، وسقطة، وصراخاً، ولُهاثاً. ثمّ عمّ الصّمت.

عَرضُنا الأوّل

كثيراً ما تغنّي الخادمة، أغانيَ شعبية قديمة وأخرى جديدة على الموضة، تتحدّث عن الحرب. كنّا نسمع تلك الأغاني وردّدناها على الهرمونيكا. طلبنا كذلك من الجنديّ الوصيف أن يعلّمنا بعض أغاني بلده.

وذات مساء، والوقت متأخرٌ، بينما كانت الجدّة تغطّ في نومها، ذهبنا إلى المدينة. قرب القلعة، عند زقاق قديم، توقّفنا أمام منزل واطئ. كانت تنبعثُ من الباب، الذي ينفتح على سلّم، أصوات، وضجيج، ودخان. نزلنا الدرجات الحجرية التي أفضت بنا إلى قبو رُتِّب على شكل حانة. كان ثمّة رجال يشربون خمراً، واقفين أو جالسين على مقاعد خشبيّة وبراميل. أغلب الرّجال من الشيوخ، بيد أنّ هنالك أيضاً بعض الشبّاب، بالإضافة إلى ثلاث نساء. لم ينتبه إلينا أحد.

بدأ أحدنا يعزف على الهرمونيكا بينما الآخر يغنّي أغنية معروفة تتحدّث عن امرأة تنتظرُ زوجها الذي غادر إلى الحرب، والذي سيعود منتصراً.

بدأ الحاضرون يستديرون شطرنا شيئاً فشيئاً؛ خفتت

الأصوات. أخذنا نغني، ونعزف أعلى فأعلى، وبدأنا نسمع صدى لحننا يتردّد، وينعكس على قبّة القبو، وكأنّ أحداً آخر هو من يغنّي ويعزف.

وإذ انتهت أغنيتنا رفعنا أعيننا إلى الوجوه المتعبة الجوفاء. بدأت امرأة تضحك وتصفّق. قال رجل أكتعُ بصوت أجشّ:

- مرّة أخرى. اِعزفا شيئاً آخر!

تبادلنا الأدوار. من كان يعزف الهرمونيكا ناولها إلى الآخر، وبدأنا نغني أغنية جديدة.

اِقترب منا رجلٌ نحيلٌ مترنّحاً، وصرخ في وجهينا:

- اِخرسا أيّها الكلبان!

ودفعنا بعنف، أحدنا يميناً والآخر إلى الشمال؛ فقدنا التوازن وسقطت الهرمونيكا. صعد الرجل درجات السلّم مستنداً إلى الجدار. وتناهى إلينا صوته وهو ما يزال يصرخ في الشارع:

- ليصمتِ الجميع!

أخذنا الهرمونيكا من على الأرض، ومسحناها. قال أحدهم:

- إنّه أصمّ.

قال آخر:

- هو ليس أصمّ فحسب. إنّه، بالأخصّ، مجنون تماماً.

داعب شيخ شعرنا. وطفرت دمعة من عينيه الغامقتين اللّتين يكلّلهما السواد:

- يا للبؤس! يا لهذا العالم البائس! أيّها المسكينان! أيّها العالم المسكين!

قالت امرأة:

- أصمّ ومجنون، هو عادَ. أنت أيضاً عُدتَ.

جلستْ على ركبتي الرّجل الأكتع.

قال الرجل:

- أنتِ محقّة، يا جميلتي، لقد عدتُ. لكن بما سأشتغل؟ بما سأمسك قطعة الخشب التي أنشرها؟ هل سأمسكها بكمّ قميصي الفارغ؟

قال رجلٌ آخر، كان جالساً على مصطبة، ضاحكاً:

- أنا أيضاً عدتُ. غير أنّي مشلول الجزء الأسفل من الجسد. القدمان والباقي. لن ينتصب قضيبي بعد اليوم. كنتُ أُفضّل لو قضيت في الحين، بضربة واحدة.

قالت امرأة أخرى:

- أنتم لا ترضون أبداً بما لديكم. أولئك الذين أراهم يموتون في المستشفى يقولون جميعهم: «كيفما كانت الحال التي سأكون عليها، أريد أن أعيش، أن أعود إلى بيتي، إلى أمّي، كيفما كان، المهم أن أعيش قليلاً بعدُ.»

قال رجلٌ:

- أقفلي فمك. النّساء لم يرَيْن شيئاً من هول الحرب.

قالت المرأة:

- لم نرَ شيئاً؟ أيّها الوغد! نحن نقوم بكلّ شيء، ونحمل الهمّ كلّه: إطعام الأطفال، الاعتناء بالجرحى! أمّا أنتم، فما إن تنتهي الحرب، حتّى تصيرون جميعكم أبطالاً. إن كنتم موتى، فأنتم

أبطال؛ وإن بقيتم أحياءً، فأنتم أبطال؛ وإن صرتم معطوبين، فأنتم أبطال. ولهذا اخترعتم الحربَ، أيّها الرّجال. إنّها حربكم. لقد أردتموها، فاضطلعوا بها، يا أبطال مؤخرتي!

أخذ الجميع يتحدّثون ويصرخون. قال الشيخ الذي كان بقربنا:

- لم يُرد أحدٌ هذه الحربَ. لم يُردها أحدٌ، لم يُردها أحد.

صعدنا من القبو؛ وكنّا عازمَين على العودة.

كان القمرُ يضيء الأزقّة والطريق المغبرّة التي تفضي إلى بيت الجدّة.

تطوّر عروضنا

تعلّمنا التلاعب بثمار الفاكهة: التفاح والجوز والمشمش.
بدأنا باثنتين، وكان الأمر سهلاً، ثم انتقلنا إلى ثلاث وأربع، حتّى استطعنا التلاعب بخمس ثمار في الآن نفسه.

اِبتكرنا كذلك ألعاب خفّة، معتمدين على بعض أوراق اللّعب، وبعض السجائر.

تدرّبنا كذلك على الحركات البهلوانية. صرنا نُتقن التدحرج، والقفز قفزات خطيرة، والشّقلبة للأمام والخلف، وصار بإمكاننا المشي على أيدينا بسهولة بالغة.

اِرتدينا ملابس بالية جداً، وواسعة جداً قياساً على حجمينا، وجدناها في صندوق العلّيّة: سترات فضفاضة ممزّقة مزركشة بالمربّعات، وسراويل واسعة شددناها بحبل عند خصرينا. وجدنا كذلك قبّعة سوداء مستديرة ومتينة.

ثبّت أحدنا على أنفه حبّة فلفل حمراء، بينما ثبّت الآخر شارباً مزيّفاً صنعناه من فسيل الذرة.

متنكّرَين في زيّ بهلوانَين قصدنا ساحة السّوق، فهناك يوجد أكبر عدد من المتاجر ومن النّاس.

بدأنا عرضنا بإصدار ضجيج قوي من الهرمونيكا ومن ثمرة قرع مجوّفة حوّلناها إلى طبل. وعندما استملنا عدداً كافياً من المتفرّجين، بدأنا اللّعب بالطماطم أو حتّى بالبيض نفسه. كانت الطماطم حقيقية، فيما كان البيض مفرغا ومملوءاً بالرمل الدّقيق. وبما أنّ لا علم للمتفرّجين بذلك، فقد كانوا يطلقون الصيحات ويضحكون ويصفّقون كلّما تظاهرنا بأنّنا أمسكنا إحدى البيضات في آخر لحظة.

تابعنا عرضنا بألعاب خفّة، وأنهيناها بحركات بهلوانية.

وبينما كان أحدنا يتابع التدحرج والقفزات الخطيرة، كان الآخر يقوم بجولة على الجمهور، مشياً على يديه وممسكاً القبّعة البالية بأسنانه.

في المساء قصدنا الحانة دونما تنكّر.

لم يمضِ وقت طويل حتّى عرفنا كلّ حانات المدينة، وكلّ الأقبية حيثُ يبيع الخمّارون ما صنعوه بأيديهم، والمشارب حيثُ نشربُ واقفين، والمقاهي التي يقصدها بعض المتأنّقين وبعض الجنود الباحثين عن فتيات.

النّاس الذين يشربون يعطون النّقود بيُسر، مثلما يكشفون عن مكنون صدورهم بسهولة. هكذا عرفنا كلّ أشكال الأسرار عن كلّ فئات النّاس.

غالباً ما نُدعى للشرب، وشيئاً فشيئاً تعوّدنا على الكحول. ندخّن أيضاً السجائر التي تُمنح لنا.

أينما حللنا نحصد النّجاح. يجدُ الجميع صوتنا جميلاً؛ يُصفّقون لنا كثيراً ونُستدعى مرات عدّة.

المسرح

أحياناً، حينما يكون النّاس منتبهين، حين لا يبالغون في السُّكْر أو اللّغط، نقدّم إحدى مسرحياتنا القصيرة، مثل مسرحية: قصّة الفقير والغني.

يلعب أحدنا دور الفقير بينما يلعب الآخر دور الغنيّ.

الغني جالس إلى طاولته، يدخّن. يدخلُ الفقير:

- لقد فرغت من قطع خشبك يا سيّدي.

- حسناً. التمرين مفيد جداً. تبدو صحتّك جيّدة، وخدودك محمرّة.

- يدايّ متجمّدتان سيّدي.

- اِقترِب! دعني أرى! هذا مُقرِف! يداك مليئتان بالتشقّقات والدمامل.

- إنّها قروح سبّبها البّرد، يا سيّدي.

- أنتم معشر الفقراء تصابون دوماً بأمراض مقزّزة. إنّكم قذرون وهذه هي مشكلتكم. خذ، هذا أجر عملك.

يرمي بعلبة سجائر إلى الفقير الذي يتلقّفها ويشعل واحدة

ويشرع في تدخّينها. بيد أنّه لم تكن ثمّة منفضة قرب الباب حيثُ هو، ولم يجرؤ على الاقتراب من الطاولة. لهذا أخذ ينفض رماد سيجارته في راحة يده. يتظاهر الغني، الذي كان يرغب في رحيل الفقير، بأنّه لم يلاحظ حاجة الرّجل لمنفضة. بيد أنّ الفقير لا يرغب في أن يبرح المكان لفرط جوعه. يقول:

- رائحة منزلك زكيّة يا سيّدي.

- هي رائحة النظافة.

- هي أيضاً رائحة الحساء الساخن. لم أتناول بعد شيئاً اليومَ.

- كان عليك أن تفعل. أمّا أنا فسأذهب للعشاء في المطعم، لأنّي منحت الطبّاخ إجازة.

ينفخ الفقير:

- ومع ذلك، تفوح في المكان رائحة الحساء السّاخن اللّذيذ.

يصرخ الغنيّ:

- لا يمكن أن تفوح رائحة الحساء في بيتي؛ لا أحد يعدّ الحساء هنا؛ لا بدّ أنّ الرائحة آتية من بيت الجيران، أو أنّ رائحة الحساء تفوح من مخيّلتك! أنتم معشر الفقراء لا تفكّرون إلاّ بمعداتكم؛ ولهذا السبّب لا تملكون نقوداً أبداً؛ تنفقون كلّ ما تكسبونه على الحساء والنقانق. أنتم خنازير، هي ذي حقيقتكم. والآن، ها أنت ذا توّسخ أرضيتي برماد سيجارتك! أخرج من هنا، ولا تُرني وجهك بعد الآن!

يفتح الغنيّ الباب، ويركل الفقير الذي ينبطح على الرّصيف.

يُقفل الغنيّ الباب، ويجلس أمام صحن حساء، ثمّ يشبكُ يديه ويقول:

- شكراً، سيّدي المسيح، على كلّ هذه الخيرات التي تعطينا.

صفّارات الإنذار

عندما قدمنا إلى بيت الجدّة لم تكن صفارات الإنذار تدوّي في المدينة الصّغيرة إلا لماماً. الآن صارت أكثر فأكثر. تنطلقُ الصّفارات في أيّ وقت من النّهار أو اللّيل، تماماً مثلما يحدث في المدينة الكبيرة. يركض النّاس، حينها، للاختباء، يحتمون بالأقبية. وأثناء ذلك تكون الشوارع مقفرة. وأحياناً تظل أبواب البيوت والمتاجر مفتوحة. نستغلّ الظرف لنأخذ ما نريد دون أن يمنعنا أحد.

لا نحتمي البتّة بقبونا، و جدّتي أيضاً لا تفعل ذلك. ننهمك نهاراً بأشغالنا، وليلاً ننام.

وفي الغالب الأعمّ لا تفعل الطائرات أكثر من عبور مدينتنا، لكي تقصف الجهة الأخرى من الحدود. ولا يمنع أن تسقط قنبلة، من حين لآخر، على أحد المنازل. وفي تلك الحالة نحدّد موقع الحدث، بملاحظة الدّخان، ثمّ نذهب لمعاينة ما دُمّر. وإذا ما فَضُل شيء يستحقّ الأخذ، أخذناه.

لاحظنا أنّ النّاس الذين يحتمون بقبو منزل تمّ قصفه، يلقون دائماً حتفهم. بالمقابل، تكاد المداخن تظلّ قائمة دائماً.

يحدثُ كذلك أن تنقضّ إحدى الطائرات لتطلق الرّصاص من رشاشها على الناس في الحقول والأزقّة.

علّمَنا الجنديُّ الوصيف أنّه ينبغي أخذ الحذر حين تتوجّه الطائرة نحونا، لكن ما إن تستوي فوق رؤوسنا حتى يكون الخطر قد زال.

بسبب الإنذارات، يُمنع إشعال المصابيح ليلاً قبل التأكد التّام من إغلاق جميع النوافذ وتعتيمها. تظنّ الجدّة أنّ الأفضل هو عدم إشعالها بالمرّة. وتجوب المدينة ليلاً دوريات للتأكّد من تطبيق القانون.

وبينما نتناول إحدى وجباتنا، كنّا نتحدّث عن طائرة رأيناها تهوي مشتعلة. شاهدنا أيضاً كيف قفز الربّان بمظلة.

- لا نعرف ما الذي حلّ بالربّان العدو.

قالت الجدّة:

- عدوّ؟ إنّهم أصدقاء، إخوة لنا. وسيصلون قريباً.

وذات يوم بينما كنا نتجوّل أثناء الإنذار ركض رجل مذهول باتجاهنا:

- لا ينبغي أن تظلاّ في الخارج أثناء القصف.

جرّنا من ذراعينا:

- أُدخلا، أُدخلا هنا.

- لا نريد ذلك.

- إنّه ملجأ، ستكونان بمأمن فيه.

فتح الباب ودفعنا أمامه. كان القبو غاصاً بالنّاس. صمتٌ كليّ

كان يرين على المكان. والنّساء كنّ يحضنّ أولادهن إلى صدورهن.

فجأة دوّى قصف في مكان مّا. وبدأت الانفجارات تقترب. قفز الرجل الذي قادنا إلى القبو فوق كومة الفحم التي كانت هناك، وحاول أن يندفن فيها.

هزئت بعض النّساء باحتقار. وقالت امرأة مسنّة:

- لقد فقد أعصابه. ولهذا السبب منحوه إجازة.

وبغتة لم يعد بوسعنا التنفّس. فتحنا باب القبو؛ دفعتنا امرأة كبيرة عظيمة الجثّة، وصدّت الباب وهي تصيح:

- هل جننتما؟ لا يمكنكما الخروج الآن.

قلنا:

- دائماً يموت النّاس في الأقبية. نريد الخروج.

ألصقت المرأة ظهرها بالباب، وأرتنا شارة الحماية المدنية خاصتها:

- أنا من يحكم هنا! ستبقيان هنا!

غرزنا أسناننا في لحم ساعديها السمينين، وأشبعنا ساقيها ركلاً. أطلقت العنان لصرخاتها وحاولت ضربنا. بدأ النّاس يضحكون. في الأخير قالت، وهي تمتقع خجلاً وغضباً:

- هيّا! أُغربا! اِذهبا لتموتا في الخارج! لن نخسر شيئاً.

في الخارج، تنفّسنا الصعداء. كانت تلك أوّل مرّة نَخبر فيها شعور الخوف.

اِستمرّت السماء تمطرُ قنابلَ.

القطيع البشري

ذهبنا إلى دار الخوري لنستعيد ملابسنا النّظيفة. كنّا نأكل الشطائر مع الخادمة في المطبخ. سمعنا صرخات قادمة من الشارع. وضعنا شطائرنا وخرجنا. كان النّاس واقفين أمام أبواب بيوتهم؛ ينظرون شطرَ المحطّة. وأطفال مستثارون يركضون صائحين:

- إنّهم قادمون! إنّهم قادمون!

عند انعطافة الشارع لاحت سيّارة عسكرية تُقِلّ ضباطاً أجانبَ. كانت السيّارة تسيرُ متهادية، يتبعها جنود حاملين بنادقهم على أكتافهم. خلفهم ما يُشبه القطيع البشري. أطفالٌ مثلنا، ونساء مثل أمّنا، وشيوخ مثل الإسكافي.

كانوا مئتين أو ثلاث مئة، يسيرون محاطين بالجنود. بعض النّساء يحملن أطفالهنّ على ظهورهنّ، أو أكتافهنّ، أو يضممنهنّ إلى صدورهنّ. تعثّرت إحداهنّ؛ سارعت الأيادي تمسك بها وبطفلها، أعانتها الأيادي على النهوض، لأنّ جندياً كان قد صوّب بندقيّته.

لا أحد يتكلّم، ولا أحد يبكي؛ كلّ العيون مثبتة على الأرض. لا شيءَ يُسمع غير وقع أحذية الجنود المسمّرة.

وعندما صار الحشد أمامنا، خرجت ذراع نحيلة، وامتدت يدٌ متّسخة، وسأل صوتٌ:

- خبزٌ.

مبتسمة، مدّت الخادمة ما تبقّى من شطيرتها؛ قرّبتها من اليد الممدودة، ثمّ، وهيَ تضحك بصوت عالٍ، أعادت قطعة الخبز إلى فمها، وعضّت عليها وهي تقول:

- أنا أيضاً، جائعة!

أحدُ الجنود، وقد تابع ما فعلته الخادمة، ضربها بغنج على مؤخّرتها ثمّ قرص وجنتها. تابعته هي ملوّحة بمنديلها، حتّى لم يعد يُرى من الحشد غير سحابة غبار عند الشّمس المائلة للمغيب.

عدنا إلى الداخل. ومن المطبخ لمحنا السيّد الخوري جاثماً أمام الصليب الكبير في غرفته.

قالت الخادمة:

- أكملا شطائركما.

قلنا:

- لم نعد جائعَين.

ذهبنا إلى الغرفة. إستدار الخوري:

- أَ جئتما تصلّيان معي، يا صغيريّ؟

- أنت تعلم أنّنا لا نصلّي أبداً. نريد أن نفهمَ.

- ليسَ بوسعكما أن تفهما. ما تزالان صغيرين.

- أنت، بالمقابل، لستَ صغيراً، ولهذا نريد أن نفهم منك: من هم هؤلاء النّاس؟ أين يأخذونهم؟ ولمَ؟

قام الخوري، وتقدّم نحونا، ثمّ قال وهو يُغمِض عينيه:

- سُبل اللّه لا يمكن سَبْرُ غورها.

فتح عينيه، ووضع يديه على رأسينا:

- مؤسفٌ أنّكما اضطررتما إلى متابعة هذا المشهد. كلّ أعضائكما ترتجفّ.

- أنتَ أيضاً، سيّدي الخوري.

- أجل، أنا شيخٌ، ولهذا أرتجف.

- ونحن نرتجفُ لأنّنا نحسّ البردَ. جئنا دون ملابس تغطي نصفنا العلويّ. لقد أعطينا قمصاننا للخادمة تغسلها.

عدنا إلى المطبخ. ناولتنا الخادمة ملابسنا النّظيفة. أخذ كلّ واحدٍ منّا قميصاً. قالت الخادمة:

- أنتما حسّاسان جداً. أفضل شيء تفعلانه هو أن تنسيا كلّ ما شهدتماه.

- لا ننسى أبداً أيّ شيء.

دفعتنا باتجاه الخارج:

- هيّا، اِهدءا! لا علاقة لنا بهذا الأمر. لن يحدث لكما أبداً شيء كهذا. هؤلاء النّاس ليسوا سوى بهائم.

تفاح الجدّة

ذهبنا من دار الخوري ركضاً إلى بيت الإسكافي. كان زجاج النّوافذ محطّماً، والباب مكسوراً. وكلّ ما بالداخل مهشّم. وعلى الجدران كتابات مهينة.

كانت ثمّة عجوز جالسة على مقعد عند عتبة باب مقابل. سألناها:

- هل ذهب الإسكافي؟

- منذ مدّة طويلة. المسكين!

- لم يكن بين أولئك الذين عبروا المدينة اليوم؟

- كلاّ. أولئك الذين عبروا المدينة اليوم جيء بهم من أماكن أخرى. حمّلوهم في مقطورات خاصة بالماشية. هو قتلوه هنا، في معمله، وبأدوات اشتغاله. لا تقلقا. إنّ الله يرى كلّ شيء، وسيعرف أولياءه.

لدى عودتنا إلى المنزل وجدنا الجدّة، عند باب الحديقة، مقلوبة على ظهرها وساقاها متباعدتان، وكان حولها تفاح مبعثر.

لم تكن الجدّة تتحرّك. وكان جبينها ينزف.

ركضنا إلى المطبخ، بلّلنا خرقة، وأخذنا قنينة ماء-حياة من

على الرّف. وضعنا الخرقة المبلّلة على جبين الجدّة، وصببنا القليل من ماء-الحياة في فمها. بعد مدّة زمنيّة فتحت عينيها. قالت:

- المزيد!

صببنا المزيد من ماء-الحياة في فمها.

نهضت على ساعديها وبدأت تصيح:

- إِجمعا التّفاح! ماذا تنتظران لتجمعا التّفاح يا ابنيْ الكلبة؟

لملمنا التّفاح من الطريق المغبرّ. وضعناه في مئزرها.

سقطت الخرقة المبلّلة من على جبين الجدّة. بدأ الدم يسيل على عينيها. مسحته بطرف شالها.

سألناها:

- هل تحسّين بألم، يا جدّتي؟

أجابت هازئة:

- ليسَ عقب بندقيّة هو ما سيقتلني.

- ما الذي حدث يا جدتي؟

- لا شيء. كنت منهمكة في جمع التفاح. ثمّ خرجت أمام الباب لأشاهد الموكب. أفلتُّ مئزري؛ فسقطت التفاحات وتدحرجت على الطريق حتّى بلغت وسط الحشد تماماً. ليسَ هذا سبباً كافياً لأتلقى الضربات.

- من ضربك، يا جدّتي؟

- من تريدون أن يكون؟ لستما غبيَّين على حدّ علمي؟ ضربوهم هم أيضاً. ضربوا الحشدَ. ومع ذلك استطاع بعضهم تناول بعض تفاحاتي.

ساعدنا الجدّة على النهوض. قُدناها إلى المنزل. بدأت تقشّر التفاح لتعدّ طبق فاكهيّة[٥]، بيد أنّها سقطت، فحملناها إلى سريرها. نزعنا نعلها. اِنزلق شالها، فبرزت رأس صلعاء تماماً. أعدنا لها شالها. وبقينا طويلاً عند طرف سريرها. كنّا نمسك يديها ونراقب تنفّسها.

(٥) طبق يعدّ من الفاكهة المطبوخة بالسكّر.

الشرطيّ

كنّا نتناول الإفطار مع جدّتنا. دخل رجلٌ إلى المطبخ دون أن يطرق الباب. أخرج بطاقة الشرطة خاصته.

ما إن رأت الجدّة بطاقة الشرطة حتّى بدأت تصيح:

- لا أريد شرطةً في بيتي! لم أفعل شيئاً!

قال الشرطيّ:

- أجل، لا شيءَ، ما عدا بعض السمّ هنا وهناك.

- لا دليل على ذلك. لا تملك شيئاً ضدّي.

قال الشرطيّ:

- اِهدئي، أيّتها الجدّة، لن ننبش قبور الموتى، فنحن لم نستطع بعدُ دفنهم.

- ما الذي تريدهُ إذاً؟

نظر الشرطيّ إلينا وقال:

- لا تسقطُ الثمارُ بعيداً عن الشّجرة.

نظرت الجدّة إلينا بدورها:

- هذا ما أتمنّاه. ماذا فعلتما مجدّداً يا ابنيْ الكلبة؟

سأل الشرطي:

- أينَ كنتما مساء أمس؟

أجبنا:

- هنا.

- ألم تكونا تتسكّعان في الحانات، على دأبكما؟

- كلاّ. لقد بقينا هنا، لأنّ جدّتنا تعرّضت لحادثة.

أجابت الجدّة بسرعة:

- سقطتُ بينما كنت أنزل إلى القبو. كانت الدرجات مبلّلة، وانزلقت. شججت رأسي. أعانني الصغيران على الصعود، وعالجاني. ثمّ بقيا بجواري اللّيل بأكمله.

قال الشرطي:

- بك كدمة خطيرة، على ما أرى. عليك أن تنتبهي أكثر، في سنّك هذه. حسناً. سنفتّش المنزل. تعالوا ثلاثتكم. سنبدأ بالقبو.

فتحت الجدّة باب القبو؛ نزلنا. أزاح الشرطي كلّ شيء عن مكانه، الحقائب، والبراميل، والسلال، وحزمة البطاطس.

سألتنا الجدّة هامسة:

- عمّ يبحثُ؟

هززنا أكتافنا.

بعد القبو، انتقل الشرطي لتفتيش المطبخ. ثمّ اضطرت الجدّة إلى فتح غرفتها. بعثر الشرطي سريرها. لم يكن ثمّة شيء على السرير، ولا في الفراش، ما عدا بعض القطع النقدية تحت الوسادة.

أمام باب غرفة الضابط، سأل الشرطيُ:

- ماذا هنا؟

أجابت الجدّة:

- إنّها غرفة أجّرتُها لضابط أجنبي. لا أملك مفتاحها.

نظرَ الشرطيّ إلى باب العلّية:

- ألا تملكون سلّماً؟

قالت الجدّة:

- السلّم مكسور.

- أنا لا أصعد البتّة. وحدهما الصغيران يصعدان.

قال الشرطيّ:

- هيا بنا إذن، أيّها الصغيران.

صعدنا إلى العلّية بواسطة الحبل. فتح الشرطيّ الخزنة حيثُ نحفظ الأدوات اللازمة لدراستنا: الكتاب المقدّس والمعجم والأوراق والأقلام والدفتر الكبير حيث كتبنا كلّ شيء. بيد أنّ الشرطيّ لم يأتِ هنا للقراءة. فتّش مرّة أخرى كومة الثياب البالية والأغطية، ثمّ نزلنا. وإذ صرنا بالأسفل، نظر الشرطيّ حوله وقال:

- لا أستطيع طبعاً أن أمشّط الحديقة بأكملها. تعالا معي.

قادنا إلى الغابة، حتّى حافة الحفرة الكبيرة، حيث عثرنا على الجثّة. لم تكن الجثّة هناك. سألَنا الشرطيّ:

- هل جئتما من قبل إلى هنا؟

- كلاّ. أبداً. إنّنا نخاف الابتعاد كثيراً.

- لم يسبق أن رأيتما هذه الحفرة، ولا جنديّاً ميتاً؟

- كلاّ. أبداً.

- عندما وجدنا ذاك الجنديّ ميتاً، كانت تنقصه بندقيته، وخراطيشه وقنابله اليدوية.

قلنا:

- مؤكّد أنّه جنديّ متهاون ومهملٌ، وإلا كيف يضيع هذه الأشياء التي لا غنىً للجنديّ عنها.

قال الشرطي:

- لم يُضع هذه الأشياء، وإنّما سُرقت منه بعد موته. أنتما اللذان تأتيان كثيراً إلى الغابة، أليست لديكما فكرة عن هذا السؤال؟

- كلاّ. لا فكرة لدينا.

- ومع ذلك، قد أخذ أحدهم تلك البندقية، وتلك الخراطيش وتلك القنابل اليدوية.

قلنا:

- ومن ذا الذي يجرؤ على مسّ أشياء بهذه الخطورة؟

الاستنطاق

نحن في مكتب الشرطيّ. هو جالس إلى طاولة، بينما نحن واقفان أمامه. يعدّ ورقاً وقلماً. يدخّنُ. ثمّ يطرح علينا أسئلة:

- منذ متّى تعرفان الخادمة وتقصدان دار الخوري؟
- منذ الرّبيع.
- أين عرفتماها؟
- في بيت الجدّة. جاءت باحثة عن بعض البطاطس.
- تنقلان الحطب إلى دار الخوري. كم تتلقيّان نظير ذلك؟
- لا شيءَ. نفعله مجاناً، امتناناً للخادمة لأنّها تنظّف ملابسنا.
- أ لطيفة هيَ معكما؟
- لطيفة جداً. تعدّ لنا الفطائر. وتقصّ شعرنا وأظافرنا وتساعدنا على الاستحمام.
- تماماً مثل أمّ. ماذا عن السيّد الخوري، هل هو أيضاً لطيف معكما؟
- لطيف جداً. يعيرنا كتباً. ويعلّما الكثير من الأشياء.
- متى كانت آخر مرّة حملتما فيها الحطب إلى دار الخوري.
- منذ خمسة أيام. صباح الثلاثاء.

أخذ الشرطي يذرع الحجرة. ثمّ أرخى الستائر وأشعل مصباح المكتب. قرّب كرسيين، وأجلسنا عليهما، وسلّط الضوء على وجهينا:

- هل تحبّان الخادمة كثيراً؟

- أجل. نحبّها كثيراً.

- هل علمتما بما جرى لها؟

- هل أصابها مكروه؟

- أجل، وقع لها حدث فظيع. فبينما كانت توقد، كعادتها، النّار هذا الصبّاح، انفجر فرن المطبخ. اِنفجر في وجهها تماماً. وهي الآن في المستشفى.

توقّف الشرطيّ عن الحديث؛ لم ننبس بكلمة. قال:

- ليس لديكما ما تقولانه؟

قلنا:

- أن يصيبك انفجار تماماً في الوجه، معناه أنّك ستذهبُ لا محالة للمستشفى. لا بل قد تذهب أحياناً إلى المشرحة. هي محظوظة كونها لم تمت.

- لقد تشوّهت للأبد!

صمتنا. جلس الشرطيّ. أخذ ينظر إلينا. أخذنا ننظر إليه. قال:

- لا يبدو عليكما الحزن حقيقة؟

- نحن مسروران أنّها ظلّت على قيد الحياة، بعد حادثة بهذا الشّكل!

- لم يكن الأمر حادثة. لقد أخفى أحدهم مادة متفجّرة في حطب التدفئة. يتعلّق الأمر بخرطوش بندقية عسكرية. لقد عثرنا على تجويف الخرطوش.

سألنا:

- ما الذي سيجعل أحدهم يُقدم على فعل كهذا؟

- لكي يقتلها. هي أو السيّد الخوري.

قلنا:

- النّاس قساة. يحبّون القتل. الحربُ علّمتهم ذلك. وهناك متفجرّات في كلّ مكان.

صرخ الشرطي:

- كفّا عنِ المكر! أنتما من كانا يحملان الحطب إلى دار الخوري! وأنتما من كانا يقضيان اليوم بأكمله تجوبان الغابة! أنتما من كانا يسلبان الجثث ممتلكاتها! أنتما قادران على ارتكاب أيّ شيء! ذلك يجري في دمائكما! جدّتكما أيضاً تحملُ وزر ميتة أخرى، هي كان سلاحها السمّ، وأنتما سلاحكما المتفجّرات! إِعترفا أيّها الوغدان! إِعترفا! أنتما من فعلها!

قلنا:

- لسنا وحدنا من يحمل الحطب إلى دار الخوري.

قال:

- صحيح. هناك أيضاً الرّجل الشيخ. ولقد حقّقت معه.

قلنا:

- بوسع أيّ كان أن يخبئ خرطوشاً في حزمة حطب.

- أجل، لكن ليس بوسع أيّ كان أن يحصل على خرطوش.

لا أهتم لأمر خادمتكما! ما أريد معرفته هو: أين الخراطيش؟ وأين هي القنابل اليدوية؟ وأين هي البندقية؟ لقد اعترف الشيخ بكلّ شيء. حقّقت معه جيّداً، حتّى اعترف بكلّ شيء. لكنّه عجز عن تحديد مكان الخراطيش والقنابل اليدوية والبندقية. ليس هو المذنب إذاً. أنتما من فعلها! أنتما تعرفان مكان الخراطيش والقنابل اليدوية والبندقية. تعرفانه وستخبران به!

لم نحر جواباً. بدأ الشرطي يضرب بكلتا يديه، يميناً وشمالاً. أخذنا ننزف من الأنف والفم.

- اِعترفا!

لزمنا الصّمت. صار لونه شاحباً، واستمرّ يضرب أعنف فأعنف. سقطنا من الكرسيين. أخذ يسدّد لنا الرّكلات في الضلوع والكلى والمعدة.

- اِعترفا! اِعترفا! أنتما من فعلها! اِعترفا!

لم نعد نستطيع فتح أعيننا. ولم نعد نسمع شيئاً. غرق جسدانا في العرق والدمّ والبول والبراز. ثمّ فقدنا الوعي.

في الحبس

نحن نائمان على أرضية موحلة في زنزانة. ومن نافذة صغيرة قضبانها من حديد، يتسلّل ضوء خفيف. بيد أنّنا لا نعرف في أيّ ساعة من النّهار نحن، لا بل لا نستطيع حتّى تمييز إذا ما كان الوقت صباحاً أم بعد الظهيرة.

تؤلمنا أعضاء جسمنا جميعها. وأدنى حركة تلقي بنا إلى ما يشبه الإغماءة. بصرنا أعمى، وآذاننا تطنّ، ورأسانا يدوران. نحسّ عطشاً قاتلاً، وفَمَوانا جافان.

مرّت ساعات على هذا النّحو. لم ننطق كلمة. فيما بعد، دخل الشرطيّ وسألنا.

- أَتحتاجان إلى شيء؟

قلنا:

- نريد ماءً.

- تكلّما. اِعترفا. وستحصلان على الماء، وعلى الطّعام، وعلى كلّ ما تشتهيان.

لم نحر جواباً. سأل:

- هل تريد شيئاً أيّها الجد؟

لم يُجبه أحد، فانصرف.

فهمنا أنّنا لسنا وحدنا في الزنزانة. بحذر رفعنا رأسنا قليلاً؛ كان ثّمة شيخ على الأرض، مكوّماً عند زاوية. بهدوء زحفنا نحوه، ولمسناه. كان متصلّباً وبارداً. زحفاً مرّة أخرى، عدنا إلى مكانينا قرب الباب.

وكان اللّيل قد حلّ، حين عاد الشرطيّ حاملاً مصباح جيب. أضاء جسد الشّيخ وقال له:

- نم هانئاً. غدا سيكون بوسعك العودة إلى بيتك.

أضاء بعدها وجهينا، واحداً تلو الآخر:

- إذاً، ليس لديكما بعدُ ما تقولانه؟ الأمر سيّان. لديّ ما يكفي من الوقت. ستتكلّمان، أو ستموتان.

بعدها بمدّة، فُتح الباب، في قلب اللّيل. دخل الشرطيّ والجنديّ الوصيف والضابط الأجنبي. مال الضابط علينا. ثمّ قال للجنديّ الوصيف:

- هاتِف القاعدة، واطلب سيّارة إسعاف!

اِنصرف الجنديّ الوصيف. تفحّص الضابطُ الشّيخَ. وقال:

- لقد ضربه إلى أن فقد الحياة!

اِستدار جهة الشرطيّ:

- ستدفع ثمن هذا، يا حشرة! ليت بوسعك تصوّر كم ستدفع ثمناً لما فعلت!

سألنا الشرطيّ:

- ماذا يقول؟

- يقول بأنّ الشيخ قد فارق الحياة، وأنّك ستدفع ثمن هذا غالياً، يا حشرة!

مسح الضابط على جبيننا:

- يا صغيريّ! يا طفليّ الصغيرين! كيف جرؤ هذا الخنزير الوسخ على أذيّتكما؟

قال الشرطيّ:

- ماذا سيفعل بي؟ قولا له أنّ لديّ أطفالاً... ما كنتُ أعلم... هل هو والدكما أم ماذا؟

قلنا:

- إنّه عمّنا.

- كان عليكما أن تخبراني. ما من سبيل لديّ لأعرف ذلك. أسألكما الصّفح. ماذا بوسعي أن أفعل لـ...

قلنا:

- صلّي للرّب.

حضر الجنديّ العريف رفقة جنود آخرين. وضعونا على حمّالتين ونقلونا إلى سيارة الإسعاف. جلس الضابط بجانبنا. أُقتيد الشرطيّ، محاطاً بعدّة جنود، في السيّارة العسكرية التي يقودها الجنديّ العريف.

وما إن وصلنا القاعدة العسكرية حتّى فحصنا طبيبٌ في غرفة بيضاء. قام بتعقيم جراحنا، وأعطانا حُقناً ضدّ الألم وضدّ مرض الكّزاز. أجرى لنّا أيضاً فحوصاً بالأشعة. لم تكن بنا كسور، ماعدا بعض الأسنان التي فقدناها، بيد أنّها ليست سوى أسنان حليبية.

أعادنا الجنديّ الوصيف إلى بيت الجدّة. أنامنا على سرير الضابط الكبير، فيما اقتعد هو غطاءً جانب السرير. وفي الصباح ذهب ينادي الجدّة، التي قدمت وحملت معها حليباً ساخناً شربناه ونحن في السرير.

عندما انصرف الضابط، سألتنا الجدّة:

- هل اعترفتما؟

- لا يا جدّتي. لم نعترف بشيء.

- هذا ما خمّنت. ماذا عن الشرطيّ؟ ما الذي حلّ به؟

- لا نعرف. غير أنّ المؤكّد هو أنّه لن يعود أبداً.

قالت الجدّة هازئة:

- إما أن يُرحّل أو يُرمى بالرّصاص، هه؟ الخنزير! سنحتفل بهذا. سأسخّن دجاجة أمس. أنا أيضاً لم آكل منها.

عند الظهيرة قمنا من الفراش، وذهبنا للمطبخ لتناول الطّعام. وبينما نأكل، قالت الجدّة:

- أتساءل لمَ أردتما قتلها؟ أفترض أنّ لديكما ما يكفي من الأسباب.

الرّجل المُسِنّ

ما كدنا ننتهي من وجبة العشاء، حتّى وصل رجلٌ مُسِنٌّ تصحبه فتاة تكبرنا سنّاً.

سألته الجدّة:

- ماذا تريد؟

نطق الرّجل المسنّ باسمٍ، فقالت لنا الجدّة:

- أُخرجا. اِذهبا للّعب في الحديقة.

خرجنا. دُرنا حول المنزل وجثمنا أسفل نافذة المطبخ. أصخنا السّمع لما يقال. قال الرّجل المسنّ:

- أَشفقي رجاءً.

أجابت الجدّة:

- كيف تجرؤ على أن تطلب منّي شيئاً كهذا؟

قال الرّجل المسنّ:

- أنت تعرفين والديها. لقد عهِدا بها إليّ قبل أن يُرحّلا. ولقد أعطياني عنوانك، تحسّباً لحال إذا ما لم يعد المقام عندي آمناً.

سألت الجدّة:

- هل أنت على علم بحجم المجازفة التي تعرضها عليّ؟

- أجل، أعلم. لكنّ الأمر يتعلّق بحياتها.

- هناك ضابط أجنبي بالمنزل.

- ولهذا السبب بالضبط لن يفكرّ أحد بالبحث عنها هنا. يكفي أن تقولي إنّها حفيدتك، ابنة عمّ هذين الصغيرين.

- الجميع هنا يعلمون بأن ما من أحفاد لي، غير هذين.

- بوسعك أن تقولي أنّها من أقرباء صهرك.

قالت الجدّة متهكّمة:

- ذاك الصّهر، الذي لم أره قطّ!

بعد صمت طويل، أجاب الشيخ:

- لستُ أطلب منك سوى أن تطعمي الفتاة لبضعة أشهر. إلى حين انقضاء الحرب.

- بإمكان الحرب أن تستمرّ لسنوات.

- كلاّ. لن تطول الحرب.

بدأت الجدّة تتباكى:

- لست سوى امرأة عجوز تفني حياتها في الكدّ. أنّى لي أن أطعم كلّ هذه الأفواه؟

قال الرّجل المسنّ:

- هي ذي كلّ النقود التي كان يملكها والدها. ومجوهرات العائلة. كلّ هذا لك إنْ استطعت إنقاذها.

بعدها بلحظات، نادتنا الجدّة:

- هذه ابنة عمّكما.

قلنا:

- أجل جدّتي.

قال الرّجل المسنّ:

- ستلعبان ثلاثتكم معاً. أليس كذلك؟

قلنا:

- نحن لا نلعب البتّة.

سألنا:

- وما الذي تفعلانه إذن؟

- نشتغل وندرس ونتمرّن.

قال:

- فهمتُ. أنتما رجلان جادّان. لا وقت لديكما للّعب. ستعتنيان بابنة عمّكما، أليس كذلك؟

- أجل سيّدي. سنعتني بها.

- أشكركما.

قالت ابنة عمّنا:

- أنا أكبر سنّاً منكما.

أجبنا:

- لكنّنا اثنان.

قال الرّجل المسنّ:

- أنتما محقّان. اِثنان أقوى من واحد بمفرده. ولن تنسيا مناداتها «ابنةَ عمّكما» أليس كذلك؟

- كلاّ سيّدي. إنّنا لا ننسى شيئاً أبداً.

- أثق بكما.

اِبنة عمّنا

تكبرنا ابنة عمّنا بخمس سنوات. عيناها سوداوان. شعرها أصهب بفعل مادّة تدعى الحنّاء.

قالت لنا الجدّة بأنّ ابنة عمّنا هي في الواقع ابنة أخت والدنا. وكرّرنا الشيء نفسه على مسامع أولئك الذين سألونا عنها.

كنا نعلم أن لا أخت لأبينا. بيد أنّا كنّا نعرف أيضاً أن حياة ابنة عمّنا ستكون في خطر من دون كذب. في حين أنّا وعدنا الرجل المسنّ أن نعتنيَ بها.

بعد انصراف الرّجل المسنّ، قالت الجدّة:

- ستنام ابنة عمّكما معكما في المطبخ.

قلنا:

- ليس في المطبخ مكان لها.

قالت الجدّة:

- تصرّفا.

قالت ابنة عمّنا:

- سأنام، دون مشكلة، تحت الطاولة، على الأرض، إذا ما أعطيتموني غطاءً.

قلنا:

- بوسعك أن تنامي على المصطبة وبإمكانك أن تحتفظي بالأغطية. سننام في العلّية. ما عاد الجوّ شديد البرودة.

قالت:

- سآتي للنوم معكما في العلّية.

- لا نريدك معنا. لا تضعي قدمك أبداً في العلّية.

- لمَ؟

قلنا:

- لديك سرٌّ. ونحن أيضاً لدينا سرٌ. إن لم تحترمي سرّنا لن نحترم سرّك.

قالت:

- أوَ تستطيعان الوشاية بي.

- إن تصعدي إلى العلّية، تموتي. هل الأمر واضحٌ؟

حدّقت فينا للحظات وهي صامتة، ثمّ قالت:

- أرى جيّداً، أنكما وغدان مجنونان تماماً. لن أصعد أبداً إلى علّيتكما القذرة. أعدكما بهذا.

وقد وفت بوعدها، ولم تصعد أبداً إلى العليّة. لكن بعيداً عن ذلك، لم تكفّ عن إزعاجنا.

قالت:

- أُجلبا لي بعض التوت البريّ.

قلنا:

- ما عليك إلا أن تذهبي للبحث عنه بنفسك في الحديقة.

قالت:

- كفّا عن القراءة بصوت مرتفع. تصيبانني بالصدّاع.

تابعنا القراءة.

سألتنا:

- ماذا تفعلان هنا، مختبئين أرضاً، دون حركة، منذ ساعات؟

تابعنا تمرين السّكون، حتّى عندما بدأت ترمينا بفاكهة عفنة.

قالت:

- كفّا عن الصّمت. إنّكما تثيرانِ أعصابي!

تابعنا تمرين الصّمت ولم نُجبها.

قالت:

- لِمَ لم تأكلا أيّ شيء اليوم؟

- هذا يوم تمرين الصّوم.

اِبنة عمّنا لا تعمل ولا تدرس ولا تقوم بتمارين. غالباً ما تنظر إلى السّماء، ومن حين لآخر تبكي.

لا تضربُ الجدّةُ ابنةَ عمّنا أبداً. كما لا تسبّها. ولا تطلب منها أن تعملَ. لا تطلب منها أيّ شيء. لا بل لا تكلّمها أبداً.

المجوهرات

في إحدى الليالي التي تلت وصول ابنة عمّنا، صعدنا للنوم في العلّية. أخذنا غطاءين من غرفة الضابط الأجنبي وفرشنا تبناً على الأرض. وقبل أن ننام، نظرنا عبر الثقوب؛ لم يكن في غرفة الضابط أحد. أمّا في غرفة الجدّة فكان الضوء ما يزال مشتعلاً، وهذا نادراً ما يحدث.

أخذت الجدة مصباح الغاز من المطبخ، وعلّقته فوق منضدة الزينة. وهي قطعة أثاث بالية عليها ثلاث مرايا. المرآة الوسطى مثبتة، والأخريان متحرّكتان. بالإمكان توجيههما، بحيث يرى الناظر في المرآة نفسَه نظرة جانبية.

الجدّة جالسة تنظرُ في المرآة. على رأسها، فوق الشال الأسود وضعت شيئاً يلمع. وعلى جيدها أكثر من عِقد، ويداها مليئتان بالأساور، وأصابعها بالخواتم. كانت تتأمّل نفسها وتناجيها:

– الثراء، الثراء. من السّهل أن تكون المرأة جميلة، عندما يكون لديها كلّ هذا. منِ السّهل. إنّ العجلة تدور، والمجوهرات الآن ملكي. لي أنا. هي ذي العدالة. إنّها تلمع، إنّها تلمع.

بعد ذلك بمدّة، قالت:

- ماذا لو جاؤوا؟ ماذا لو طالبوني بها؟ فما إن يمرّ الخطر حتّى يُنسى كلّ شيء. لا يعرفون معنى الاعتراف بالجميل. يعطونك الكثير من الوعود الجميلة، ثمّ... كلاّ، كلاّ... لقد ماتوا أصلاً. والرجّل المسنّ سيموت بدوره. قال بأنّي أستطيع الاحتفاظ بكلّ شيء... ماذا عن الصغيرة؟ لقد شهدت كلّ شيء وسمعت كلّ شيء. لا شكّ في أنّها سترغب في استعادتها؟ ما إن تنتهي الحرب، حتّى تطالب بها. لكنّي لا أريد أن أعيدها. لا أريد. إنّها لي. لي إلى الأبد.

«ينبغي أن تموت هي أيضاً. هكذا. دونما أدلة. لا علم ولا خبر. أجل، ستموت. ستقع لها حادثة، قُبيل انتهاء الحرب. أجل، يلزمها حادثة. لا سمّ هذه المرّة؛ ماذا عن إغراقها في النّهر؟ من الصّعب تثبيت رأسها في الماء؛ وماذا لو سقطت عن سلّم القبو؟ كلاّ، لن يجديَ ذلك نفعاً، فالسلّم ليس عالياً بما يكفي؛ السمّ. ليس ثمّة غير السمّ. سمّ بطيء المفعول. جرعات محسوبة بعناية. مرض يلتهمها على مهل، لشهور. لا أطبّاء هنا. والكثير من النّاس يموتون على هذا النحو. بسبب نقص العناية، أثناء الحرب.

رفعت الجدّة قبضتها وهدّدت صورتها في المرآة:

- لن تستطيعوا شيئاً ضدّي! لا شيء!

أخذت تهزأ. نضت عنها الحليّ، وأعادتها إلى كيس الثوب، ثمّ أخفت الكيس في فراشها. نامت بعد ذلك. ونحن أيضاً نمنا.

في اليوم الموالي. بعدما غادرت ابنة عمّنا المطبخ، قلنا للجدّة:

- جدّتي. ثمّة أمر نريد قوله لك.

- ماذا هنالك مجدّداً؟

- إِسمعي جيّداً، جدّتي. لقد وعدنا الرّجل المسنّ بأن نعتني بابنة عمّنا. وعليه، لن يحدث لها شيء البتّة. لا حادثة ولا مرض، ولا شيء. ونحن أيضاً لن يحدث لنا شيء.

أريناها مظروفا مقفلاً:

- لقد كتبنا كلّ شيء في رسالة وضعناها هنا. وسنعطيها للسيّد الخوري. إذا ما مسّ أيّ أحد منّا مكروه ما، فسيفتح السيّد الخوري الرّسالة. أَ فهمتِ؟

نظرت إلينا الجدّة بعينين شبه مغمَضتين. وقالت بصوت خفيض جداً:

- يا ابنيْ الكلبة، يا ابنيْ العهر والشيطان! اللّعنة على اليوم الذي أبصرتما فيه النّور!

وقت الظهيرة، حين انصرفت الجدّة لتشتغل في حقل الكروم، دخلنا غرفتها وفتّشنا في الفراش. وما كان ثمّة شيء.

إبنة عمّنا وحبيبها

صارت ابنة عمّنا جديّة في تصرّفاتها، ما عادت تزعجنا. تستحمّ كلّ يوم في الحوض الكبير الذي اشتريناه بما جمعنا من نقود في الحانات. وكثيراً ما تغسل ملابسها وأيضاً تُبّانها. وبينما تجفّ ملابسها، تلتفّ بمنشفة، أو تتمدّد تحت أشعة الشّمس مرتدية تبّانها، منتظرة أن يجفّ عليها. هي شديدة السّمرة. ويصلُ شعرها حدّ مؤخّرتها. أحياناً تستلقي على ظهرها وتغطّي نهديها بشعرها.

مساءً، تذهب للمدينة. وقد بدأ مكوثها بالمدينة يطول شيئاً فشيئاً. وذات مساء تبعناها دون أن ترتاب للأمر.

وعند المقبرة انضمّت إلى مجموعة فتيان وفتيات، جميعهم يكبروننا سنّاً. ها هم جالسون تحت الأشجار يدخّنون. لديهم كذلك قناني خمر. يشربون من عنق القنينة مباشرة. يقوم أحدهم بدور الناطور عند طرف الطريق. وإن حدث واقترب أحدهم، يبدأ الناطور في الصفير، لحنَ أغنية معروفة وهو جالس بهدوء. عندها يتفرّق الجمع ويختفون بين الشجيرات، أو خلف شاهدات القبور. وعندما يزول الخطر، يصفّر الناطور لحن أغنية أخرى.

بحسب ما يقولون؛ فإنّ الجنود الأجانب الموجودين في بلادنا، ليسوا حلفاء لنا، وإنّما هم في الحقيقة أعداؤنا؛ أمّا أولئك الذين سيصلون قريباً، وسيكسبون الحرب، فليسوا أعداءنا، وإنّما هم محرّرونا.

يقولون:

- لقد عبر أبي إلى الجهة الأخرى، وسيعود معهم.

- أمّا أبي أنا، فقد فرّ من الخدمة العسكرية، ما إن تمّ إعلان الحرب.

- لقد التحق والديَّ بالمقاومة. وكنت أصغر من أن أستطيع مرافقتهما.

- أمّا والديّ، فقد أقتادهما هؤلاء الكلاب. رحّلوهما.

- لن ترى والديك مرّة أخرى. ولا أنا سأرى والديّ. كلّهم ميّتون الآن.

- ليس الأمر مؤكداً. ثمّة من نجوا.

- أمّا الموتى، فسنثأر لهم.

- كنّا صغاراً جداً. وللأسف، ما كانت لنا حيلة.

- كلّ هذا على وشك الانتهاء. فـ «هم» سيصلون بين يوم وآخر.

- سننتظرهم في الساحة الكبيرة، محمّلين بالورود.

وفي وقت متأخرّ من اللّيل. يتفرّق الجمع. ويقفل كلّ واحد راجعاً إلى بيته.

ذهبت ابنة عمّنا رفقة أحد الفتيان. تبعناهما. دخلا إلى أزقّة

القلعة الضيّقة، واختفيا خلف حائط خرب. لم نكن نراهما، بيد أنّ صوتهما كان يتناهى إلى سمعنا.

قالت ابنة عمّنا:

- اضطجع فوقي. أجل، هكذا. قبّلني. قبّلني.

قال الفتى:

- كم أنت جميلة! أرغب فيك.

- وأنا أيضاً. لكنّي خائفة. أخشى أن أحبل.

- سأتزوّجك. أحبّك. سنتزّوج بعد أن تتحرّر البلاد.

- لكنّنا ما نزال بعدُ صغيرين. علينا أن ننتظر.

- لا أستطيع الانتظار أكثر.

- كفّ عن هذا! أنت تؤلمني. هذا لا يجوز. لا يجوز يا حبيبي.

قال الفتى:

- أجل. أنت محقّة. لكن داعبيني. هات يدك. داعبيني هنا. أجل هنا. هكذا. إِستديري. أريد أن أقبّلك هنا، هنا، بينما تداعبيني.

قالت ابنة عمّنا:

- كلاّ. لا تفعل هذا. أحسّ بالخجل. آه. أكمل. أكمل، أكمل! أحبّك، أحبّك جداً.

عدنا إلى البيت.

البَركة

نحن مضطرآن لأن نعود إلى دار الخوري، لكي نعيد الكتب التي استعرناها.

ومجدّداً، كانت امرأة مسنّة هي من فتح الباب. أدخلتنا، وقالت:

- السيّد الخوري ينتظركما.

قال السيّد الخوري:

- إجلسا.

وضعنا الكتب فوق المكتب. وجلسنا.

حدّق فينا الخوري لبرهة، ثمّ قال:

- كنت أنتظركما. لم تأتيا منذ مدّة طويلة.

قلنا:

- كنّا نريد إتمام الكتب. ومشاغلنا كثيرة.

- وبالنسبة للحمّام؟

- لقد صار لدينا كلّ ما نحتاج إليه للاستحمام. فقد اشترينا حوض استحمام، وصابوناً، ومقصّاً، وفرشاة أسنان.

- بم؟ بأيّ نقود اشتريتما هذه الأشياء؟

- بالنّقود التي نجنيها من عزفنا في الحانات.

- الحانات أماكن للضّياع. خاصّة في سنّكما هذه.

لم نجبه. فقال:

- لم تعودا كذلك لأخذ نقود العمياء! لكن، هو ذا مبلغ لا بأس به، خذاه.

ناولنا النّقود. قلنا:

- إِحتفظ بها. فلطالما أعطيتَ. لقد كنّا نأخذ منك المال، حين كنّا نحتاج إليه ضرورة. أمّا الآن، فقد صرنا نكسب ما يكفي من المال لكي نساعد خطم الأرنب. ولقد علّمناها أيضاً أن تعمل. وساعدناها في عزق حديقتها، وزرعنا فيها البطاطس، والفاصوليا، والقرع، والطماطم. أعطيناها أيضاً كتاكيت وأرانب لتربّيها. هي الآن تعتني بحديقتها وحيواناتها. ما عادت تتسوّل. وما عادت بحاجة للنقود.

قال الخوري:

- خذا إذاً هذه النّقود لنفسيكما. هكذا لن تضطرّا للعمل في الحانات.

- نحن نحبّ العمل في الحانات.

قال:

- بلَغني أنّكما تعرّضتما للضرب والتعنيف.

سألناه:

- ماذا حلّ بخادمتك؟

- لقد تطوّعت للعناية بالجرحى في الجبهة. وقد ماتت.

صمتنا. قال:

- أ ترغبان في أن تسرّا إليّ بشيء. أنا ملزم بحفظ أسرار المعترفين. لا شيء تخشيانه. هيّا اعترفا لي.

قلنا:

- ليس لدينا ما نعترف به.

- إنّكما مخطئان. إنّ جريمة مثل هذه لتثقل الكاهل. والاعتراف سيخفّف أثقالكما. إنّ اللّه يغفر ذنوب كلّ من يُبدون ندماً صادقاً.

قلنا:

- لسنا نادمين. ليس لدينا ما نندم عليه.

بعد صمت طويل، قال:

- لقد رأيت كلّ شيء من النّافذة؛ قطعة الخبز... لكن لله وحده الانتقام. لا حقّ لكما في الحلول محلّه.

صمتنا. سألنا:

- هل لي أن أبارككما؟

- إذا كان الأمر يسعدك.

وضع يديه على رأسينا:

- إلهي القادر على كلّ شيء، بارك هذين الطفلين. كيفما كانت جرائمهما، سامحهما. هاتان النّعجتان الضائعتان في عالم

شنيع، هما نفساهما ضحيّتا عصرنا الممسوخ، ولا تعرفان ما تفعلان. أرجوك إلهي، أنقذ روحَيهما الفتِيَّتَين، واغمرهما بنقاء طيبتك التي لا حدّ لها ورحمتك الواسعة. آمين.

ثمّ قال لنا مجدّداً:

- عودا لرؤيتي من حين لآخر. حتّى وإن لم تكونا بحاجة إلى شيء.

الفِرار

بين عشيّة وضحاها، ظهرت ملصقاتٌ على حيطان المدينة. على إحدى هذه الملصقاتِ صورةُ رجل مسنٍّ ممدّد على الأرض، وجسده مطعون بحربة جنديّ عدوّ. وعلى ملصق آخر، يضربُ أحد الجنودِ الأعداءِ طفلاً بطفلٍ آخر يمسكه من قدميه. وفي ملصق ثالث، يمسكُ جنديٌّ بإحدى يديه امرأةً، بينما تمزّق يده الأخرى صدريّتها؛ فم المرأة مفتوح وعلى خديها تسيل الدّموع.

أصيب النّاس الذين نظروا إلى هذه الملصقات بالرّعب.

قالت الجدّة ضاحكة:

- ما هي إلا أكاذيب. لا ينبغي أن تخافا.

يقول النّاس إنّ العاصمة سقطت.

قالت الجدّة:

- لقد عبروا النّهر الكبير، لا شيء سيوقفهم بعدُ. سيكونون هنا عمّا قريب.

قالت ابنة عمّنا:

- أستطيع العودة عندها إذاً.

وذات يوم، بدأ النّاس يتناقلون أنّ الجيش قد سلّم نفسه. يقولون إنّها الهدنة، وإنّ الحرب قد انتهت. ثمّ في اليوم الموالي صاروا يقولون إنّ حكومة جديدة تتولّى الأمور، وإنّ الحرب مستمرّة.

يصل الكثير من الجنود الأجانب على متن القطارات، أو في الشاحنات. يصل معهم أيضاً بعض جنود بلدنا. ثمّة الكثير من الجرحى. وعندما يستفسرُ السّكان جنود بلادنا، يقول هؤلاء بأنّ لا علم لديهم ولا خبر. يقطعون المدينة. يقصدون البلدَ الآخر عبر الطريق التي تحاذي المخيّم.

يقول النّاس:

- إنّهم يهربون. هيَ الهزيمة.

ويقول آخرون:

- إنّما هم يستجمعون شتاتهم. يتجمهرون خلف الحدود. هناك سيوقفونهم. أبداً لن يسمحوا للعدوّ بعبور الحدود.

قالت الجدّة:

- سنرى.

كثير من النّاس يمرّون من أمام بيت الجدّة. هم أيضاً يقصدون البلد الآخر. يقولون إنّ علينا أن نهجر بلادنا، لأنّ العدوّ قادم، وسينتقم. سيحوّل شعبنا إلى عبيد.

بعض النّاس يفرّون مشياً على أقدامهم، وعلى ظهورهم حقائبهم. وآخرون يدفعون درّاجاتهم المحمّلة بأشياء لا تخطر على بال: لحاف، كمان، خنزير صغير في قفص، مجموعة مقالي.

وآخرون يجثمون فوق عربات تجرّها خيول، ويحملون عليها كلّ متاعهم.

أغلب النّازحين هم من أهالي مدينتنا، بيد أنّ هنالك آخرين يأتون من أماكن أبعد.

وذات صباح جاء الجنديّ الوصيف والضابط الأجنبي يوّدعاننا.

قال الجنديّ الوصيف:

- لقد انتهى كلّ شيء. غير أنّ من الأفضل أن يكون الإنسان مهزوماً، على أن يكون ميتاً.

أخذ يضحك. وضع الضابط الأجنبي أسطوانة على الحاكي؛ بدأنا نستمع في صمت، جالسين على السّرير الكبير. وكان الضابط يضمّنا إليه وهو ينتحب.

- لن أراكما مرّة أخرى.

قلنا له:

- سيكون لك أطفال، تنجبهم من صلبك.

- لا أريد أطفالاً.

أضاف، وهو يشير إلى الأسطوانات:

- إِحتفظا بهذه كتذكار منّي. لكنّي لن أعطيكما المعجم. فستكونان مضطرّان لتعلّم لغة أخرى.

المقبرة الجماعية

وذات ليلة، سمعنا صوت انفجارات، وطلقات بنادق، ومدافع رشّاشة. خرجنا من المنزل نستبين ما الأمر. كان ثمّة لهيب كبير يرتفع عند موقع المعسكر. حَسِبنا أنّ العدوّ قد وصل، لكن في اليوم الموالي عادت المدينة تغرق في صمتها، ولم يعد يُسمع سوى هدير المدافع البعيد.

على الطريق المفضية إلى القاعدة العسكرية، لم يكن هنالك حرس. ونحو الأعلى يصعد دخان كثيف، مقرف الرّائحة. قرّرنا أن نذهب لنرى.

دخلنا إلى المعسكر. كان فارغاً. لا أحد هناك. بعض المباني ما تزال تحترق. ورائحة النتانة لا تطاق. بيد أنّنا أقفلنا أنوفنا، وتقدّمنا رغم ذلك. أوقفَنا الحاجزُ الحديديّ الشّائك. صعدنا إلى مطلّة. عندئذ شاهدنا ساحة كبيرة، وفي السّاحة كانت أربع محارق سوداء. استطعنا تحديد منفذٍ، خرق في الحاجز الحديدي. نزلنا عن المطلّة وقصدنا المنفذ. كان باباً حديدياً كبيراً، مفتوحاً. وقد كُتب فوقه باللّغة الأجنبية: «معسكر العبور».

كانت المحارق التي لمحناها من فوق، عبارة عن جثث

متفحّمة. بعضها احترق تماماً ولم يبق منه إلا كومة عظام. أمّا بعضها الآخر فبدأ يسوَدّ لِتوّه. كان هناك الكثير منها. من كلّ الأحجام؛ صغيرة وكبيرة؛ جثث راشدين وجثث أطفال. خمّنا أنّهم قُتلوا أولاً، ثم كُدّست أجسادهم وصُبّ فوقها البنزين وأُضرمت فيها النّار.

تقيّأنا. وغادرنا المعسكر ركضاً. عدنا إلى المنزل. نادتنا الجدّة للعشاء، لكّننا كنّا ما نزال نتقيّأ.

قالت الجدّة:

- هل أكلتما قذارة مّا مرّة أخرى؟

قلنا:

- أجل. أكلنا تفاحاً أخضرَ.

قالت ابنة عمّنا:

- لقد تمّ إحراق المعسكر. علينا أن نذهب لنتفرّج. لا شكّ في أنّه لم يعد أحد هناك.

- لقد سبق وذهبنا إلى هناك. ليس ثمّة ما يستحقّ المشاهدة.

قالت الجدّة متهكّمة:

- أما نسيَ الأبطال شيئاً؟ هل أخذوا كلّ شيء معهم؟ أما تركوا شيئاً ذا فائدة؟ هل تفقّدتما جيّداً؟

غادرت ابنة عمّنا المطبخ. تبعناها، وسألناها:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- إلى المدينة.

- منذ الآن؟ عادة، لا تذهبين إلا حين يحلّ المساء.

ابتسمت وقالت:

- صحيح. بيد أنّي على موعد مع أحدهم. هيّا كونا عاقلين!

اِبتسمت لنا مرّة أخرى، ثمّ ركضت مسرعة نحو المدينة.

أُمّنا

كنّا في الحديقة، حين توقّفت سيارة عسكرية عند باب المنزل. نزلت منها أمّنا، يتبعها ضابط أجنبي. عبرت أمّنا الحديقة، توشك أن تركض. كانت تحمل بين ذراعيها رضيعاً. وما إن رأتنا حتّى صرخت:

- تعاليا! تعاليا بسرعة إلى السيّارة. سنرحل. هيّا أسرعا. أتركا كلّ أشيائكما وتعاليا!

سألنا:

- طفلُ من هذا؟

قالت:

- إنّها أختكما. هيّا! ليس لدينا وقت نضيّعه.

سألناها:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- إلى البلد الآخر. كفّا عن الأسئلة وتعاليا.

قلنا:

- لا نريد الذّهاب. نريد أن نبقى هنا.

قالت أمّنا:

- أنا مضطرّة للذهاب. وستأتيان معي.

- كلاّ. نحن سنبقى هنا.

خرجت جدّتنا من المنزل، وقالت لأمّنا:

- ماذا تفعلين هنا؟ وماذا أرى بين ذراعيك؟

أجابت أمّنا:

- جئت أصطحب ولديَّ. سأرسل لك النّقود يا أمّي.

قالت الجدّة:

- لا أحتاج إلى نقودك. ولن أعيد لك أبداً ولديك.

طلبت أمّنا من الضابط أن يأخذنا قسراً. قفزنا بسرعة إلى العلّية بواسطة الحبل. حاول الضابط الإمساك بنّا، فركلناه على وجهه. أخذ يتوّعدّ. سحبنا الحبل.

قالت الجدّة متهكّمة:

- أ رأيتِ. لا يريدان مرافقتك.

صاحت أمّنا بأعلى صوتها:

- هيّا انزلا فوراً! هذا أمر!

قالت الجدّة:

- إنّهما لا يخضعان أبداً للأوامر.

انخرطت أمّنا في النحيب:

- تعاليا يا عزيزيَّ. لا أستطيع الرحيل دونكما.

قالت الجدّة:

- أ لا يكفيك هجينك الأجنبيّ؟

قلنا:

- نحن بخير هنا، يا أميّ. اِرحلي قريرة العين. نحن بأفضل حال في بيت جدّتنا.

بدأ هدير المدافع، وصوت الرّشاشات يرتفع. أمسك الضابط والدتنا من ذراعها، وجرّها إلى السيّارة. لكنّها حرّرت نفسها، وقالت:

- إنّهما ولداي. أريدهما! أحبّهما!

قالت الجدّة:

- إنّي بحاجة إليهما. فأنا عجوز. أما أنت، فما زال بإمكانك أن تنجبي آخرين. والدليل بين يديك!

قالت أمّنا:

- أتوسّل إليك. لا تحرميني منهما.

قالت الجدّة:

- أنا لا أمنعهما من مرافقتك. هيّا، أيّها الصبيّان، اِنزلا فوراً، ورافقا أمّكما.

قلنا:

- لا نريد أن نرحل. نريد أن نبقى عندك يا جدّتي.

أمسك الضابط ذراع أمّنا من جديد، بيد أنّها دفعته. ذهب الضابط يجلس في السيّارة وشغّل المحرّك. وعند هذه اللّحظة بالضبط، انفجرت طلقة في الحديقة. وبعدها مباشرة ألفينا أمّنا على الأرض. ركض الضابط نحوها، بينما حاولت الجدّة أن تحول بيننا وبينها. قالت:

- لا تنظرا إلى هذا! عودا إلى البيت!

بدأ الضابط يسبّ، ثم ركض إلى سيارته ومضى كالإعصار.

نظرنا إلى أمّنا. كانت أحشاؤها بادية من بطنها المبقور. وكامل جسمها أحمر، مثلها مثل الرّضيع. ورأس أمّنا كانت متدلية في الحفرة التي أحدثتها القذيفة. وكانت عيناها مفتوحتين وما تزالان مبلّلتين بالدّمع.

قالت الجدّة:

- هيّا، أحضرا المجرفة!

فرشنا لحافاً في قعر الحفرة، ومدّدنا أمّنا فوقه. كانت ما تزالُ تحضن الرّضيع. غطّيناها بلحاف آخر، ثمّ ردمنا الحفرة.

وعندما عادت ابنة عمّنا من المدينة، سألتنا:

- هل حدثَ شيء مّا؟

قلنا:

- أجل، لقد أحدثت قذيفةٌ حفرةً في الحديقة.

رحيل ابنة عمّنا

سمعنا طيلة اللّيل صوت الطّلقات والانفجارات. وعند الفجر حلّ السّكون فجأة. كنّا نائمين على سرير الضابط الواسع. فقد صار سريرهُ ملكاً لنا، مثلما صارت غرفته خاصتنا.

وفي الصّباح، ذهبنا لتناول الإفطار في المطبخ. كانت الجدّة أمام الفرن، بينما ابنة عمّنا تطوي أغطيتها.

قالت:

- لم أنم كفايتي.

قلنا:

- ستنامين في الحديقة، فما عاد ثمّة ضجيج، والجوّ حارّ.

سألتنا:

- أما أصابكما الخوف في اللّيلة الماضية؟

هززنا أكتافنا دون أن ننبس بشيء.

طُرق الباب. دخل رجل بزيّ مدنيّ يتبعه عسكريّان. العسكريّان يحملان مدفعين رشّاشين، ويرتديان بزّة عسكرية ما رأينا مثلها من قبل.

قالت الجدّة شيئاً مّا، بتلك اللّغة التي تتحدّثها عندما تكون قد

شربت ماء-الحياة. أجابها العسكريّان. عندها قفزت الجدة نحوهما، وعانقتهما وقبّلتهما واحداً تلو آخر، واستمرّت تحادثهما.

قال الرّجل ذو الزيّ المدنيّ:

- هل تتكلّمين لغتهما، يا سيّدتي؟

أجابت الجدّة:

- إنّها لغتي الأمّ، يا سيّدي.

سألتِ ابنةُ عمّنا:

- أ هم هنا؟ متى وصلوا؟ كنّا نريد استقبالهم بأكاليل الورد، في السّاحة الكبرى.

سألها الرجل ذو الزيّ المدنيّ:

- من تقصدين بضمير "نحن"؟

- أنا وأصدقائي.

إِبتسم صاحب الزيّ المدني وقال:

- لقد فات الوقت إذن. فقد وصلوا هذه اللّيلة. ووصلت بعدهم مباشرة. وأبحثُ الآن عن شابةٍ.

نطق اسم الشّابة التي يبحث عنها؛ فقالت ابنة عمّنا:

- إنّها أنا. أين والديَّ؟

ردّ ذو الزيّ المدنيّ:

- لا علم لي بذلك. مهمّتي تنحصر في البحث عن الأطفال المُدرجة أسماؤهم في اللائحة التي أعطيت لي. سنقصد في البداية مركزاً للإيواء وسط المدينة الكبيرة. وبعدها سنشرع في التقصّي عن آبائكم.

قالت ابنة عمّنا:

- لديّ صديق هنا. هل هو أيضاً على لائحتك؟

نطقت باسم حبيبها، فنظر الرّجل إلى لائحته وقال:

- أجل. وهو الآن في المقر العام للجيش. ستسافران معاً. هيّا حضّري متاعك.

مسرورةً جداً، لملمت ابنة عمّنا فساتينها وجمعت أدوات زينتها في منشفة الاستحمام.

اِستدار الرّجل ذو الزيّ المدنيّ نحونا وقال:

- وأنتما؟ ما اسماكما؟

قالت الجدّة:

- إنّهما حفيداي. سيظلاّن معي.

قلنا:

- أجل. سنبقى عند جدّتنا.

قال الرّجل:

- ومع ذلك أريد معرفة اسميكما.

أخبرناه باسمينا. ألقى نظرة على لائحته، ثمّ قال:

- لستما على لائحتي. بإمكانك الاحتفاظ بهما، يا سيّدتي.

قالت جدّتي:

- وكيف؟ بالطبع أستطيع الاحتفاظ بهما!

قالت ابنة عمّنا:

- أنا مستعدّة. هيّا بنا.

قال الرّجل:

- تبدين مستعجلة جداً. بإمكانك على الأقل شكر هذه السيّدة، ووداع هذين الولدين الصغيرين.

قالت ابنة عمّنا:

- ولدان صغيران؟ بل وغدان صغيران.

ضمّتنا إليها بقوّة، وقالت:

- لن أقبّلكما. فأنا أعرف أنّكما لا تحبّان ذلك. لا تكثرا من التصرّفات الطائشة، واعتنيا بنفسيكما.

ضمّتنا إليها بقوّة أشدّ، وأجهشت. أمسكها الرّجل ذو الزيّ المدنيّ من ذراعها وقال للجدّة:

- أشكرك يا سيّدتي، نظيرَ كلّ ما فعلته لأجل هذه الفتاة.

خرجنا جميعنا. أمام باب الحديقة سيّارة عسكرية. ركب العسكريان في المقاعد الأمامية، بينما جلس الرّجل ذو الزيّ المدنيّ وابنة عمّنا في الخلف. صاحت جدّتي مجدّداً بشيء مّا، فضحك العسكريان. انطلقت السيّارة العسكرية. لم تستدر ابنة عمّنا.

وصول أجانب جدد

بعد رحيل ابنة عمّنا، قصدنا المدينة لنرى ما يحدث.

عند ناصية كلّ شارع دبّابة. وفي السّاحة الكبيرة شاحنات، وسيارات عسكرية، ودرّاجات نارية، وعربات جانبية. وكان هناك الكثير من الجنود، في كلّ مكان. وفي ساحة السّوق غير المعبّدة، كانوا ينصبون الخيام ويقيمون المطابخ في العراء.

عندما كنّا نمرّ أمامهم، كان يبتسمون لنا ويكلّموننا، لكنّنا لم نكن نفهم ما يقولون.

وما عدا العساكر، لم يكن ثمّة أحد في الشوارع. كانت أبواب البيوت مقفلة، والستائر مسدلة، وواجهات المحلاّت مقفلة.

عدنا إلى المنزل، وقلنا للجدّة:

- المدينة هادئة تماماً.

قالت متهكّمة:

- إنّهم يرتاحون الآن. لكن مساءً، سترون بأمّ أعينكما!

- ما الذي سيحدثُ يا جدّتي؟

- سيبدأون البحث. سيفتّشون كلّ شيء. وسيأخذون ما طاب لهم. لقد شهدت حرباً من قبل، وأعرف كيف تجري الأمور.

نحن، ليس لدينا ما نخشاه: فليس لديهم ما يأخذونه هنا، وأنا أعرف كيف أكلّمهم.

- لكن عمّ يبحثون يا جدّتي؟

- عن الجواسيس، والأسلحة، والذخيرة، والساعات، والذهب والنّساء.

وبالفعل، بعد الزوال، بدأ العساكر بتفتيش المنازل تفتيشاً ممنهجاً. وإذا ما رفض أهل البيت فتح الأبواب، يطلقون النّار في الهواء، ثمّ يكسرون الباب.

الكثير من المنازل كانت فارغة. فسكّانها إمّا رحلوا بلا رجعة، أو اختفوا في الغابة. وهذه المنازل الخاوية، كانت تتعرّض للتفتيش شأنها شأن غيرها، وشأن المحلاّت والمتاجر.

وبعد مرور العساكر، جاء دور اللّصوص، الذين أغاروا على المحلاّت التجارية والمنازل المهجورة. وأغلب اللّصوص كانوا من الأطفال والشّيوخ، إضافة إلى بعض النّساء، اللّواتي لا يخشين شيئاً، ويعانين الفقر.

اِلتقينا خطمَ الأرنب. كانت ذراعاها محمّلتان بالملابس والأحذية. قالت لنا:

- أسرعا، مادام ما يزال ثمّة ما يستحقّ الأخذ. هي المرّة الثالثة التي أتسوّق فيها، اليوم.

دلفنا إلى المكتبة التي كان بابها مكسوراً. ولم يكن ثمّة غير بعض الأطفال الأصغر سنّا. كانوا يأخذون أقلاماً، وطباشيرَ ملوّنة، ومماحِيَ، ومناجر، ومحافظ.

اِخترنا ما نحتاجه، دون أن يزعجنا أحد: موسوعة كاملة من أجزاء عديدة، ثمّ أقلاماً وأوراقاً.

في الشارع كان شيخ ينازعُ عجوزاً قطعةَ لحم مدخّن. يحفّهما أناس يضحكون ويشجّعونهم. غرزت المرأة أظافرها في وجه الرّجل، وفي الأخير كانت هي من انتصر وأخذ قطعة اللّحم.

اللّصوص يثملون بما سرقوه من كحول، ويتشاجرون، ويكسرون نوافذ المنازل وزجاج المحلاّت التجارية التي نهبوها، ويحطّمون الأواني ويلقون على الأرض الأشياء التي لا يحتاجون إليها، أو التي لا يستطيعون حملها معهم.

الجنود أيضاً يثملون، بعدها يعودون إلى المنازل، لكنهم هذه المرّة، يعودون بحثاً عن نساء.

ومن كلّ مكان تنبعثُ أصوات الطّلقات، وصراخ النّساء اللّواتي يُغتصبن.

وفي الساحة الكبيرة، يعزف أحد الجنود على الأكورديون، بينما يرقص الآخرون ويغنّون.

الحريق

منذ أيّام، لم نرَ الجارة في حديقتها. وما عدنا نلتقي خطمَ الأرنب. ذهبنا نستطلع الأمر.

كان باب الكوخ مفتوحاً. دخلنا. النوافذ ضيّقة، لهذا كانت الغرفة تغرق في الظلام، على الرغم من أنّ الشمس وضّاءة في الخارج.

عندما ألِفت عيوننا الظلمة، استطعنا تمييز جسد الجارة. كانت ممدّدة على طاولة المطبخ. قدماها تتأرجحان، ويداها موضوعتان على وجهها. ما كانت تتحرّك.

كانت خطم الأرنب مضطجعة على السّرير. عارية. وبين فخذيها المفتوحتين بركةٌ جافّة من الدّم والمني. كانت جفونها مُسدلة إلى الأبد، ومن بين شفتيها اللّتين تنفرجان عن أسنان سوداء، تُطلّ ابتسامة أبدية. لقد ماتت خطم الأرنب.

قالت الجارة:

- إرحلا.

اقتربنا منها، وسألناها:

- أَلست صمّاء.

- لا. ولا عمياء. اِرحلا.

قلنا:

- نريد مساعدتك.

قالت:

- لستُ أحتاج إلى مساعدة. لا أحتاج إلى شيء. اِرحلا.

سألنا:

- ماذا حدث هنا؟

- لقد رأيتما بأمّ أعينكما. لقد ماتت. أليس كذلك؟

- أجل. هل قتلها الأجانب الجدد؟

- أجل. هي من ناداهم. خرجت إلى الطريق وأشارت لهم بالمجيء. كانوا اثني عشر أو خمسة عشر. وبينما كانوا يتبادلون اعتلاءها، لم تكفَّ عن الصيّاح: «ما أسعدني، ما أسعدني! هيّا جميعاً، هيّا، واحدٌ بعدُ، واحد آخرُ بعد!» لقد ماتت سعيدة. نيكت حتّى الموت. لكنّي أنا، لم أمت! بقيت ممدّدة هنا، دون أكل أو شرب، ولست أدري منذ متى. والموتُ لا يأتي. عندما نطلبه لا يأتي. يتسلّى بتعذيبنا. منذ سنوات وأنا أطلبه، ومنذ سنوات وهو يتجاهلني.

سألناها:

- هل ترغبين حقاً في الموت؟

- وماذا بوسعي أن أتمنّى غير ذلك؟ إذا كنتما تريدان مساعدتي، أشعلا النّار في الكوخ. لا أريد أن يجدوني هكذا.

قلنا:

- ستتألّمين آلاماً فظيعة.

- لا تأبها لهذا. أحرقا المنزل، وكفى، إن كنتما تستطيعان ذلك.

- أجل سيّدتي. نستطيع ذلك. بوسعك الاعتماد علينا.

ذبحناها بضربة موسى، ثمّ ذهبنا نضخّ بعض البنزين من إحدى المركبات العسكرية. بلّلنا بالبنزين الجسدّين والحيطان والكوخ. ثمّ أضرمنا النّار، وعدنا إلى منزلنا.

في الصبّاح قالت لنا الجدّة:

- لقد احترق منزل الجارة. ولقد بقيت الأمّ وابنتها هناك. لعلّ الفتاة قد نسيت، بحمقها، شيئاً مّا فوق النّار.

عدنا إلى الكوخ لنأخذ الدّجاج والأرانب، لكنّ جيراناً آخرين، كان قد أخذوا كلّ شيء ليلاً.

نهاية الحرب

منذ أسابيع ونحن نتابع مرور فيالق الأجانب من أمام منزل الجدّة، أولئك الأجانب الّذين بتنا نناديهم جيش المحرّرين.

الدبّابات، والمدافع، والمدرّعات، والشاحنات، تعبرُ الحدود ليل نهار. وتزداد الجبهة ابتعاداً، أكثر فأكثر، داخل حدود البلد المجاور.

وفي المنحى المعاكس تتقدّم جحافل أخرى: أسرى الحرب، المهزومون. بينهم الكثير من أبناء بلدنا. ما يزالون يرتدون بزّاتهم العسكرية، لكنّهم منزوعو السّلاح والشرائط. يسيرون مترّجلين، حاسري الرّؤوس، حتّى يبلغوا المحطّة. وهناك يُركبونهم في مقطورات. ولا أحد يعلم إلى أين يأخذونهم، كما لا أحد يعلم كم من الوقت سيبقون هناك.

تقول الجدّة بأنّهم يأخذونهم بعيداً، إلى بلد بارد وقفر. وهناك يُجبرون على العمل، عملاً قاسياً، شديد القسوة إلى درجة أنّ لا أحد منهم يعود. كلّهم يموتون من البرد، أو بسبب أمراض لا حصر لها.

بعد شهر من تحرّر بلادنا، بدأت أمارات انتهاء الحرب تظهر

في كلّ مكان، وبدأ المحرّرون يستقرون عندنا، ويقال إنّ استقرارهم استقرارٌ نهائي. طلبنا من الجدّة أن تعلّمنا لغتهم. قالت:

- كيف تريدان منّي أن أعلمكم إيّاها؟ أنا لستُ أستاذةً.

قلنا:

- الأمر في غاية البساطة، يا جدّتي. ما عليك إلا أن تكلّمينا بهذه اللّغة طيلة اليوم، وسننتهي بأن نفهمها.

ولم يمضِ وقت طويل حتّى صرنا نعرف من تلك اللّغة ما يكفي لكي نضطلع بدور المترجم بين الأهالي والمحرّرين. وقد استغلَلْنا ذلك لكي نتاجر في السلع التي يملكها الجيش بوفرة: السجائر، والتبغ، والشوكولا. تلك السلع التي كنّا نقايضها بما يملكه المدنيون: الخمر، وماء-الحياة، والفاكهة.

ما عادت للنقود قيمة تذكر. وصار الجميع يتعاملون بالمقايضة.

صارت الفتيات ينمن مع الجنود مقابل جوارب حرير تحتية، ومجوهرات، وعطور، وساعات، وغيرها من الأشياء التي سلبها الجنود من المدن التي عبروها.

لم تعد الجدّة تقصد السوق بعربتها. وإنّما صارت النّسوة المتأنّقات يأتين حتّى بيتها، ويتوسّلن إليها لكي تعطيهم دجاجة أو قطعة نقانق، نظيرَ خاتم أو أقراط أذن.

تُوزّع بطاقات حصص. ويقف النّاس في طوابير أمام محلاّت

الجزارة والخبّازين ابتداءً من الرّابعة صباحاً. أما باقي المحلاّت، فقد ظلت مقفلة بسبب انعدام السلع.

الجميع يعوزهم كلّ شيء.

أمّا نحن والجدّة، فلا شيء يعوزنا.

بعدها، صارت لنا حكومة، وصار لنا جيش. بيد أنّ محرّرينا هم من يسيّرون حكومتنا وجيشنا. ويرفرف علمهم فوق كلّ المباني الحكومية. كما تُعرض صورة زعيمهم في كلّ مكان. وصاروا يلقّنوننا أغانيهم ورقصاتهم ويعرضون أفلامهم في صالاتنا. وفي المدارس صارت لغة المحرّرين، لغة إلزامية، بينما مُنع تدريس كلّ اللّغات الأجنبية الأخرى.

ولا يُسمح بأيّ مزحة ضدّ محرّرينا، وضدّ حكومتنا الجديدة. وتكفي وشاية بسيطة لكي يُلقى بأيّ كان في غياهب السّجن، دون تحقيق، ودون محاكمة. وبدأ الرّجال والنّساء يختفون دون أن يعرف أحدٌ لماذا، ودون أن تعلم عائلاتهم شيئاً عن مصيرهم.

أعيد بناء الحدود. وصارت الآن ممتنعة الاجتياز.

صار بلدنا محاطاً بسياج من الحديد الشائك؛ صرنا معزولين تماماً عن العالم.

المدرسة تُستأنف من جديد

في الخريف، عاد الأولاد جميعهم إلى المدرسة، ما عدا نحن.

قلنا للجدّة:

- جدّتي. لا نريد أن نعود إلى المدرسة مرّة أخرى.

قالت:

- ذلك ما أتمنّاه. فأنا أحتاج إليكما هنا. ثمّ ماذا بوسع المدرسة أن تعلّمكما بعد؟

- لا شيء، جدّتي، قطعاً لا شيء.

ولم يمضِ وقت طويل، حتّى وصلتنا رسالة. تساءلت الجدّة:

- ما المكتوب في الرّسالة؟

- يقولون، إنّك مسؤولة عنّا، وإنّنا مُطالَبان بالالتحاق بالمدرسة.

قالت الجدّة:

- ألقيا بالرّسالة إلى النّار. أنا لا أعرف القراءة، ولا أنتما تعرفانها. والرّسالة لم يقرأها أحد.

أحرقنا الرّسالة. ولم يمض الكثير بعدها، حتّى وصلتنا رسالة ثانية. وكان مكتوباً فيها، أنّنا إن لم نلتحق بالمدرسة، فإنّ الجدّة ستتعرّض للمعاقبة القانونية. ألقينا بتلك الرّسالة أيضاً للنّار. وقلنا للجَدّة:

- جدّتي لا تنسيْ أنّ أحدنا أعمى، بينما الثاني أصمّ.

وبعدها بأيام، حضر رجل إلى منزلنا. وقال:

- أنا مفتّش المدارس الابتدائية. لديكم هنا طفلان في سنّ التمدرس الإجباري. ولقد وصلكم إنذاران بخصوص هذا الأمر.

قالت الجدّة:

- أ تقصدُ الرسالتين؟ لا أعرف القراءة. والطفلان أيضا لا يعرفان.

تساءل أحدنا:

- من هذا؟ ماذا يقول؟

- يسأل إن كنّا نعرف القراءة. صف لي كيف هو؟

- إنّه ضخم الجثّة. ويبدو شريراً.

بدأنا نصرخ معاً:

- اِرحل! لا تؤذنا! لا تقتلنا! أنجدونا!

اِختبأنا تحت الطاولة. سأل المفتّش جدّتنا:

- ماذا بهما؟ ما الذي يحدث لهما؟

قالت الجدة:

- آه! المسكينان، إنّهما يخافان من الجميع! لقد شهدا أشياء

مروّعة في المدينة الكبيرة. بل أكثر من هذا، أحدهما أصمّ والآخر أعمى. على الأعمى أن يُخبر الأصمّ بما يسمعه، وعلى الأصمّ أن يصف للأعمى ما يراه. دون ذلك لا يفهمان شيئاً.

تحت الطاولة، كنّا نصرخ:

- النّجدة، النّجدة! الانفجار! الضّجيج لا يحتمل! ما أكثر الشظايا!

بدأت الجدّة تشرح:

- عندما يخيفهما أحد ما، يأخذان في رؤية وسماع أشياء لا وجود لها.

قال المفتّش:

- هي إذاً هلوسات. ينبغي أخذهما ليعالجا في المستشفى.

قالت الجدّة:

- كلاّ. إلاّ المستشفى. ففي مستشفى بالضبط حصلت لهما كلّ هذه المصيبة. فقد ذهبا يزوران أمّهما التي كانت تعمل هناك، حين سقطت على المستشفى قذائف. وشهدا بأعينهما الجرحى والموتى؛ لا بل هما نفساهما بقيا في غيبوبة لأيام عديدة.

قال المفتّش:

- يا للمسكينين. وأين والداهما؟

- لعلّهما ميّتان، أو هما مفقودان. ما أدراني؟

- من المؤكّد أنّهما حمل ثقيل بالنّسبة إليك.

- وما العمل؟ ليس لهما أحد سوايَ.

وإذ همّ بالرّحيل، مدّ المفتش يده إلى الجدّة، وصافحها قائلاً:

- أنت امرأة شجاعة حقاً.

بعدها، وصلتنا رسالة ثالثة مكتوب عليها بأنّنا معفيّان من الذهاب إلى المدرسة بسبب طابعنا الانطوائي، وصدمتنا النّفسية.

الجدّة تبيع حقل الكروم

جاء ضابط إلى الجدّة يسألها بيع حقل كرومها. فالجيش يريد أن يقيم على أرضها مبنىً لحرّاس الحدود.

سألته الجدّة:

- وبمَ تنوون دفع ثمنها؟ ما عادت للنقود قيمة.

قال الضابط:

- مقابل أرضك، سنجهزّ منزلك بالماء الجاري والكهرباء.

قالت الجدّة:

- لست أحتاج إلى كهربائكم ولا مائكم الجاري. لقد عشت حياتي كلّها من دون حاجة لذلك.

قال الضابط:

- بوسعنا أيضاً أن نأخذ أرضك دون أن ندفع شيئاً مقابلها. وهو ما سنفعله، إن امتنعت عن قبول عرضنا. الجيش بحاجة إلى أرضك. ووضعيتك كمواطنة تلزمك بأن تعطيه إيّاها.

فتحت الجدّة فمها، وهمّت بالكلام. لكنّا تدخلنا:

- جدّتي، أنت مسنّة ومُتعبة. صار حقل الكروم يرهقك،

دون فائدة تذكر. بالمقابل، سترتفع قيمة منزلك كثيراً إن جهّز بالماء والكهرباء.

قال الضابط:

- إنّ حفيديك أكثر ذكاءً منك، أيّتها الجدّة.

قالت الجدّة:

- أجل، هذا صحيح. ناقشهما في الأمر. وليقرّرا ما يريدان.

قال الضابط:

- لكنّي أحتاج إلى توقيعك.

- سأوقّع كلّ ما تريدونه. ففي كلّ الأحوال، لست أجيد الكتابة.

اِنخرطت الجدّة في البكاء، ثمّ قامت وقالت:

- أثق بكما.

ذهبت إلى حقل الكروم.

قال الضابط:

- كم تحبُّ حقل كرومها. يا للعجوز المسكينة. اِتّفقنا إذاً؟

قلنا:

- كما لاحظت بنفسك، فإنّ هذا الحقل يعني الكثير بالنّسبة لها، وقطعاً لن يرغب الجيش في أن يحرم عجوزاً مسكينة من ملكها الذي حصّلته بعد جهد جهيد، خاصةً وأنّ أصولها تعود إلى أصول محرّرينا الأبطال.

- أ صحيح؟ هل هي من...

- أجل. وتتكلّم لغتهم بطلاقة. ونحن أيضاً نتكلّمها. وإذا ما كنت تفكّر في القيام بأيّ تجاوز...

أجاب الضابط بسرعة:

- كلاّ، كلاّ! ماذا تريدان؟

- بالإضافة إلى الماء والكهرباء، نرغب في حمّام.

- أ هذا كلّ شيء؟ وأين تريدان أن نقيم هذا الحمّام؟

قُدناه إلى غرفتنا، وأريناه أين نريد إقامة الحمّام.

- هنا، حيث ينفتح على غرفتنا. نريده أن يكون ما بين سبعة وثمانية أمتار. وأن يشمل حوض استحمام مريحاً، ومغسلاً، ومرشّ استحمام، ومسخّن ماء، ومرحاضاً.

حدّق فينا مليّاً، ثمّ قال:

- لكما ذلك.

قلنا:

- نريد أيضاً جهاز راديو. فنحن لا نملك واحداً، ولا سبيل إلى شرائه.

سألنا:

- وهل هذا كلّ شيء؟

- أجل، هذا كلّ شيء.

إنفجر ضاحكاً:

ستحصلان على حمّامكما وعلى جهاز الرّاديو الذي ترغبان فيه. بيد أنّه كان أفضل لي لو تناقشت مع جدّتكما.

مرض الجدّة

ذات صباح، لم تخرج الجدّة من غرفتها. طرقنا بابها، وناديناعليها، دون أن نحصل على جواب.

ذهبنا خلف الباب، وكسرنا زجاج نافذة كي نستطيع الدخول.

كانت الجدّة ممدّدة على سريرها لا تتحرّك. رغم أنّها كانت تتنفّس، وقلبها يدقّ. مكث أحدنا قربها، بينما ذهب الآخر لينادي الطبيب.

فحص الطبيب الجدّة، ثمّ قال:

- لقد أصيبت جدّتكما بسكتة، بجلطة دماغية.

- هل ستموت؟

- لا نستطيع معرفة ذلك. إنّها مسنّة، بيد أنّ قلبها ما يزالُ قويّاً. أعطياها هذه الأدوية ثلاث مرّات في اليوم. ثمّ يلزمها أحد يعتني بها.

قلنا:

- نحن سنعتني بها. ما الذي ينبغي فعله؟

- أن تطعماها، وتنظّفاها. ستبقى في الغالب مشلولة ما تبقّى من عمرها.

إنصرف الطّبيب. أعددنا عصيدة خضر وأطعمناها بملعقة صغيرة. وقُبيل المساء عمّت غرفة الجدّة رائحةٌ نتنة. رفعنا عنها غطاءها، فألفينا الفراش مليئاً بالبراز.

ذهبنا لنجلب بعض القشّ من عند أحد المزارعين، واشترينا سراويل من المطّاط خاصّة بالأطفال، وحفّاظات.

نزعنا عن الجدّة ملابسها، وغسلناها في حوض الاستحمام خاصتنا، ثمّ أعددنا لها فراشاً نظيفا. كانت نحيلة، إلى درجة أنّ سراويل الأطفال وَسِعَتها. بدأنا نبدّل حفّاظاتها عدّة مرّات في اليوم.

مرّ أسبوع، وبدأت الجدّة تحرّك يديها. وذات صبّاح استقبلتنا بالسّباب:

- يا ابني الكلبة! أعدّا دجّاجة! كيف تريدان منّي أن استعيد قوايَ وأنتما لا تطعماني غير خضرواتكما وعصيدتكما؟ أحضرا لي أيضاً حليب ماعز! أتمنّى أنّكما لم تهملا أيّ شيء بينما كنت طريحة الفراش!

- لا يا جدّتي، ما أهملنا شيئاً.

- ساعداني على النّهوض، أيّها الوغدان!

- جدّتي، ينبغي أن تظلّي مستلقية. هذا ما قاله الطبيب.

- الطبيب، الطبيب! يا له من غبيّ! ستظلّ مشلولة ما تبقّى من عمرها! سأريه معنى أن أظلّ مشلولة!

أعنّاها على القيام، ورافقناها إلى المطبخ، وأجلسناها على

المصطبة. وحينما نضجت الدّجاجة، التهمتها بمفردها. ثمّ بعد الفراغ من الوجبة، قالت:

- هيّا أيها الكسولان. اِصنعا لي عكّازا قوياً جداً. أسرعا، أريد أن أتفقّد كلّ شيء بنفسي.

ركضنا إلى الغابة، وهناك وجدنا عصاً مناسبةً. وأمام أنظار الجدّة شرعنا نقلّم العصا، على مقاسها. وعندما أمسكت العكّاز بيدها، لوحّت به في وجهنا، وقالت:

- الويل لكما، إن لم أجد كلّ شيء على ما يرام.

خرجت إلى الحديقة. تبعناها من بعيد. دخلت إلى المرحاض، وهناك سمعناها تغمغم:

- سراويل! أيّ فكرة هي! إنّهما فعلاً مجنونان!

عندما دخلت إلى المنزل، ذهبنا نتفقّد المرحاض. كانت قد رمت سراويلها وحفّاظاتها في الحفرة.

كنز الجدّة

ذات مسّاء، قالت لنا الجدّة:

- قفّلا كلّ الأبواب وكلّ النّوافذ. أريد محادثتكما، ولا أرغب في أن يسمعنا أحد.

- لا أحدّ يمرّ البتّة من هنا، يا جدّتي.

- حرس الحدود يجوبون كلّ الأماكن، وأنتما تعرفان ذلك جيّداً. ولا يتردّدون في التصنّت على الأبواب. اِحملا لي أيضاً قلمَ رصاص وورقة رسم.

سألناها:

- هل تريدين أن تكتبي، يا جدّتي؟

صاحت فينا:

- نفّذا ما طلبتُ! ولا تطرحا مزيداً من الأسئلة!

قفّلنا النّوافذ والأبواب، وحملنا ورقةً وقلم رصاص. جلست الجدّة عند الطرف الآخر من الطاولة، وشرعت ترسم شيئاً مّا على الورقة. قالت هامسة:

- هو ذا المكان حيث خبّأت كنزي.

ناولتنا الورقة. كان مرسوماً فوقها مستطيلٌ، وصليب، وأسفل الصليب دائرة. سألتنا الجدّة:

- أ فهمتما؟

- أجل جدّتي، فهمنا. لكنّنا كنّا نعرف ذلك أصلاً.

- ماذا، ما الذي كنتما تعرفانه أصلاً؟

أجبناها هامسيْن:

- كنّا نعرف أنّ كنزك يوجد تحت قبر جدّي.

صمتت الجدّة برهة، ثمّ قالت:

- كان عليّ أن أشك في الأمر. هل تعرفان ذلك منذ مدّة طويلة؟

- منذ مدّة طويلة جداً، يا جدّتي. مذ رأيناك تعتنين بقبر جدّي.

أخذت الجدّة نفساً طويلاً، ثمّ قالت:

- لن يُجديَ الغضب نفعاً. ثمّ إنّ مآل كلّ شيءٍ لكما. أنتما الآن ذكيّان بما فيه الكفاية لتعرفا كيف تتصرّفان بالكنز.

قلنا:

- ليس لنا ما نفعله به الآن.

قالت الجدّة:

- أجل. أنتما محقّان. ينبغي الانتظار. هل ستصبران على الانتظار؟

- أجل، سنصبر يا جدّتي.

صمتنا، ثلاثتنا، لبرهة، ثمّ قالت الجدّة:

- ليس هذا كلّ شيء. عندما تعاودني الجلطة، إِعلما أنّي لا أرغب في الاستحمام، أو ارتداء سراويل أو حفّاظات.

قامت، وأخذت تفتّش على الأرفف بين قواريرها. ثمّ عادت تحمل علبة زرقاء صغيرة. قالت:

- بدلَ قذارات أدويتكما، اسكبا محتوى هذه القنينة في أول كأس حليب تسقياني إيّاه.

لم نحر جواباً. صاحت:

- هل فهمتما يا ابنيْ الكلبة؟

لم نحر جواباً. فقالت:

- لعلّكما تخشيان ما سيكشف عنه التّشريح أيّها الغِرّان؟ لن يكون ثمّة تشريح. لا أحد سيشغل باله بالبحث، إذا ما ماتت عجوز بعد جلطة ثانية.

قلنا:

- لسنا نخشى التشريح، يا جدّتي. فقط نحن نعتقد أنّ بوسعك تجاوز محنة صحيّة ثانية.

- كلاّ، لن أتجاوزها. إني على يقين من ذلك. ينبغي إذن إنهاء الأمر بسرعة.

لم نقل شيئاً، فأجهشت الجدّة وقالت:

- أنتما لم تَخبرا إحساس العجز. أن ترى وتسمع كلّ شيء، دون أن تقوى على الحركة. إذا كنتما عاجزين عن إسداء هذه

الخدمة الصغيرة لي، فما أنتما إلا ناكرا جميل، تُعبانان أنعمتُ عليهما بدفء مأواي.

قلنا:

- كفّي عن البكاء، يا جدّتي. سنفعلها؛ إن كانت هذه رغبتك، سنفعلها.

والدُنا

عندما وصل أبونا، كنّا نعمل ثلاثتنا في المطبخ، لأنّها كانت تمطر في الخارج.

وقف الأب أمام الباب، يداه مضمومتان وساقاه مفرجتان، وسألنا:

- أين هي زوجتي؟

ردّت الجدّة متهكّمة:

- أنظرا إلى هذا! لقد كان لها بالفعل زوج.

قال الأب:

- أجل. أنا زوج ابنتك. وهذان ولداي.

نظر إلينا ثمّ أضاف:

- لقد كبرتما كثيراً. لكنّكما لم تتغيّرا.

قالت الجدّة:

- لقد عهدت إليّ ابنتي، أي زوجتك، بالطفلين.

قال الأب:

- كان من الأفضل لو عهدت بهما لأحد غيرك. أين هي؟ لقد أخبروني بأنّها رحلت خارج البلاد. أ صحيح هذا؟

قالت الجدّة:

- لقد مرّ وقت طويل على كلّ هذا. أين كنت حتّى الآن؟

قال الأب:

- كنتُ أسيرَ حرب. والآن أرغب في أن أجتمع بزوجتي من جديد. لا تحاولي إخفاءَ أيّ شيء، أيّتها المشعوذة العجوز.

قالت الجدّة:

- تعجبني الطريقة التي تشكرني بها على اعتنائي بطفليك.

صاح الأب:

- لست آبه! أين زوجتي؟

قالت الجدّة:

- لست تأبه؟ لست تأبه بطفليك أو بي؟ سأريك إذاً أين هي زوجتك!

خرجت الجدّة إلى الحديقة، وتبعناها. أشارت بعكّازها إلى مربّع الزهور التي زرعناها فوق قبر أمّنا، وقالت:

- هي ذي زوجتك! هنا تحت التراب.

قال الأب:

- ماتت؟ كيف؟ ومتى؟

قالت الجدّة:

- قتلتها قذيفةٌ. أياماً قبل انتهاء الحرب.

قال الأب:

- ممنوع دفن النّاس أنّى كان.

قالت الجدّة:

- لقد دفنّاها حيث ماتت. وهنا ليسَ أنّى كان. هذه حديقتي. وقد كانت حديقتها أيضاً، عندما كانت صغيرة.

نظر الأب إلى الزّهور المبلّلة، وقال:

- أريد أن أراها.

قالت الجدّة:

- لا ينبغي أن تفعل ذلك. لا ينبغي إزعاج الأموات.

قال الأب:

- في كلّ الأحوال، ينبغي دفنها في مقبرة. هذا ما يقرّره القانون. أعطوني مجرفة.

هزّت الجدّة كتفيها، وقالت:

- أعطوه مجرفة.

وتحت الأمطار، كنّا نتابع الأب يخرّب حديقة أزهارنا الصّغيرة، ونتابعه يحفر، حتّى بلغ الأغطية، فأزاحها. كان ثمّة هيكل عظمي ممدّد، وفوق صدره يجثم هيكل عظميٌّ صغير.

سألنا أبي:

- ما هذا؟ ما هذا الشيء فوقها؟

قلنا:

- إنّها رضيعة. أختنا الصغيرة.

قالت الجدّة:

- لقد حذّرتك، ينبغي أن تترك الموتى بسلام. تعالَ تغتسل في المطبخ.

لم يجب الأب. كان ينظر إلى الهيكلين العظميين. وكان

وجهه يقطر عرقاً ودموعاً ومطراً. خرج من الحفرة مترنّحا، وانصرف دون أن يلتفت، بيدين وثياب يملؤها الوحل.

سألنا الجدّة:

- ماذا نفعل؟

قالت:

- ينبغي أن تعيدا ردم الحفرة. ماذا في وسعنا أن نفعل غير ذلك؟

قلنا:

- عودي للدفء جدّتي. سنتكفّل بالأمر.

دخلت

بواسطة غطاء، حملنا الهيكلين إلى العلّية. وهناك مدّدناهما فوق التّبن ليجفّا. ثمّ نزلنا، وأهلنا التراب على الحفرة التي لم يعد بها أحد.

بعد مدّة من ذلك، أنفقنا أشهراً نلمّع عظام أمّنا وأختنا، وجمجمتيهما، ونطليها بطلاء شفّاف. ثمّ نعيد رصف قطع الهيكلين بعناية مستعينين بسلك رقيق. وعندما فرغنا من عملنا ذاك، علّقنا هيكل أمّنا على أحد أعمدة العليّة، وعلّقنا هيكل الرّضيعة في جيدها.

والدنا يعود

لم نرَ والدنا إلاّ سنوات بعد ذلك.

وقبلها، كانت الجدّة قد تعرضّت لجلطة أخرى، وساعدناها على الموت، كما طلبت. هي الآن ترقد في القبر نفسه الذي يرقد فيه الجدّ. وقبل أن نفتح القبر، كنّا قد استخرجنا الكنز، ودفنّاه أسفل الإفريز أمام نافذتنا، حيث ما تزال البندقية، والذخيرة، والقنابل اليدوية.

وصل الأب ذات مساء، وسألنا:

- أين هي جدّتكما؟

- لقد ماتت.

- وتعيشان وحدكما؟ من يعتني بكما؟

- نحسن الاعتناء بأنفسنا، أبي.

قال:

- جئت إلى هنا متخفّياً. ينبغي أن تساعداني.

قلنا:

- لم تبلغنا عن أخبارك منذ سنوات.

أرانا يديه. لم تعد لديه أظافر. كانت منزوعة من جذورها.

قال:

- خرجت لتوّي من السّجن. لقد عذّبوني.

- لِمَ؟

- لست أدرى. من أجل لا شيء. أنا شخص مريبٌ سياسياً. لا أستطيع ممارسة مهنتي. وأنا مراقب بشكل دائم. شقّتي تفتّش دوماً. لا أستطيع العيش أكثر من هذا، في هذه البلاد.

قلنا:

- أَ تريد عبور الحدود؟

قال:

- أجل. أنتما اللذان تعيشان هنا، من المؤكدّ أنّكما تعرفان، تعلمان...

- أجل، نعرف، نعلم. لا يمكن عبور الحدود.

أطرق أبي، وتأمّل يديه برهة، ثمّ قال:

- من الضروري أنّ تكون ثمّة فسحة مّا، سبيل مّا للهرب.

- إذا ما خاطرت بحياتك. أجل.

- أفضّل الموت على أن أبقى هنا.

- عليك أن تقرّر بعد أن تحيط بحجم المجازفة، يا أبي.

قال:

- ها أنا ذا أصغي.

بسطنا أمامه الأمر:

- أولى الصعوبات، تتمثّل في الوصول إلى السياج الشائك

الأوّل دون أن تصادف دورية، ودون أن يراك أحد العسس. وهذا الأمر ممكن. نحن نعرف ساعات مرور الدوريات، ومواقع العسس. يبلغ علو السياج الشائك متراً ونصف، بينما عرضه متر. يلزمك إذاً لوحا خشب، أحداها لتتسلّق السياج، والآخر تضعه فوقه، لكي تعبر واقفاً. وإن فقدت توازنك، ستسقط بين الأسلاك، ولن تستطيع الخروج بعدها.

قال الأب:

- لن أفقد توازني.

أكملنا:

- عليك أن تستعيد لوحا الخشب، لتعبر بالطريقة نفسها، الحاجز الآخر الذي يبعد بسبعة أمتار.

قال الأب ضاحكاً:

- الأمر شديد السهولة، إنّه لعب أطفال.

- أجل. لكنّ المسافة بين الحاجزين مزروعة ألغاماً.

شحب وجه الأب، وقال:

- الأمر إذاً مستحيل.

- كلاّ. هيَ مسألة حظّ. فالألغام موضوعة بشكل متعرّج، وفق الشكل W. فإذا ما سرتَ في خطّ مستقيم، لن تطأ سوى لغم واحد. وإذا ما قفزت في خطوات واسعة، ستكون فرصة نجاتك من هذا اللّغم واحدٌ من سبعة.

فكّر الأب برهة، ثمّ قال:

- قبلت المجازفة.

قلنا:

- في هذه الحال، سنساعدك. سنرافقك حتّى الحاجز الأولّ.

قال الأب:

- اِتّفقنا إذاً. أشكركما. هل أجد لديكما شيئاً يؤكل؟

قدّمنا له قليلاً من الخبز مع جبن الماعز. وسقيناه أيضاً خمراً صنعت من كرم الحقل الذي كانت تملكه الجدّة. وفي كأسه دسسنا منوّماً كانت الجدّة قد أعدّته بواسطة بعض الأعشاب.

قدنا والدنا إلى غرفتنا، وقلنا له:

- تصبح على خير يا أبي. نم نوماً هانئاً. سنوقظك غداً.

ثمّ ذهبنا لننام على المصطبة في المطبخ.

الفراق

صبيحة الغد، استفقنا مبكّراً. تأكّدنا من أنّ والدنا ينام نوماً عميقاً.

جهّزنا أربعة ألواح خشبية.

إِستخرجنا كنز الجدّة: قطعاً ذهبية وأخرى فضيّة، والكثير من المجوهرات. وضعنا قسماً كبيراً منها في كيس ثوب. أخذ أيضاً كلّ واحد منّا قنبلة يدوية، تحسباً لأن تفاجئنا دورية مّا. فبتفجيرها، سنربح بعض الوقت.

قمنا بجولة تفقّدية قرب الحدود، لكي نحدّد أفضل المواقع للهرب: كانت ثمّة نقطة ميّتة، نقطة لا ترى بين حارسين. وهناك أخفينا أسفل جذع شجرة كيس الثوب وألواح الخشب.

عدنا إلى المنزل، وتناولنا طعامنا. بعد ذلك بمدّة، حملنا طعام الإفطار إلى والدنا. وكان علينا أن نهزّه لكي يستيقظ. فرك عينيه وقال:

- مرّ وقت طويل دون أن أنعم بمثل هذا النّوم الهانئ.

وضعنا الطبق على ركبتيه. قال:

- يا لها من وليمة! حليب، وقهوة، وبيض، ولحم خنزير،

وزبدة، ومربّى. لا وجود لهذه الأشياء في المدينة. كيف تحصلون عليها؟

- إنّنا نشتغل. هيّا كُلْ، يا أبي. لن يسمح لنا الوقت بأن نمنحك وجبة أخرى قبل الرّحيل.

سألنا:

- هل سننفذ الأمر هذا المساء؟

قلنا:

- بل سننطلق فوراً. ما إن تفرغ من طعامك.

قال:

- هل جننتما؟ أرفض عبور حدود الزّبل هذه في وضح النّهار! سنكون مكشوفين.

قلنا:

- نحن أيضاً نحتاج أن نرى، يا أبي. ثمّ إنّ الأغبياء وحدهم يحاولون عبور الحدود ليلاً. ففي اللّيل يتضاعف عدد الدوريات أربع مرّات، كما أنّ المنطقة تمشّط بشكل منتظم بواسطة ضوء الكشّافات. بينما تخفّ المراقبة في حدود الحادية عشرة صباحاً. فحرس الحدود يعتقدون أن ما من أحد يجرؤ على عبور الحدود في هذه السّاعة.

قال الأب:

- أنتما محقّان بلا شك. أثق بكما.

سألناه:

- هل تسمح لنا أن نفتّش جيوبك بينما تأكل.

- جيوبي؟ لمَ؟

- لا ينبغي أن نترك شيئاً يدلّ على هويّتك. فإذا ما حدث لك مكروه، وعرفوا بأنّك والدنا سنصير متّهميْن بالتواطؤ.

قال الأب:

- أنتما تفكّران في كلّ شيء.

قلنا:

- ينبغي أن نحميَ نفسينا.

فتّشنا جيوبه. أخذنا أوراقه، وبطاقة تعريفه، ومفكّرته، وتذكرة قطار، وفاتورات، وصورة لأمّنا. وأحرقنا كلّ تلك الأشياء في المطبخ، باستثناء صورة أمّنا.

وفي الحادية عشرة انطلقنا. كلّ واحد منّا يحمل لوحَيْ خشب.

لم يكن والدنا يحمل شيئاً. فقد طلبنا منه أن يكتفي باقتفائنا، متجنّباً قدر إمكانه إحداث الضجيج.

وصلنا قرب الحدود. طلبنا من والدنا أن يضطجع خلف الشجرة الكبيرة، وأن لا يصدر أيّة حركة.

ولم يمضِ الكثير حتّى مرّت بقربنا دورية مؤلّفة من حارسين. سمعناهما يتكلّمان:

- أتساءل، ماذا سيعطوننا على الغداء.

- نفس الزّبل، الذي يعطوننا كلّ مرّة.

- ثمّة فرق بين زبل وزبل آخر. زبل أمس كان مقرفاً، لكن أحياناً يعطوننا زبلاً لذيذاً.

- لذيذاً؟ ما كنت لتقول هذا لو أنّك تذوّقت حساء أمّي.
- لم يسبق لي أن شربت حساء أمّك. ولم تكن لديّ يوماً أمّ.
ما أكلت يوماً غير الزّبل. وفي الجيش، يطعمونني، على الأقلّ من حين لآخر، شيئاً جيّداً.

ابتعدت الدّورية. فقلنا:

- هيّا، يا أبي. اِنصرف. ما زال أمامنا عشرون دقيقة قبل وصول الدورية الموالية.

أخذ الأب لوحا الخشب تحت إبطيه، وتقدّم، وضع بعد ذلك لوح الخشب الأول لصق السياج، ثمّ تسلّق مستنداً إليه.

تمدّدنا على بطنينا أسفل الشجرة الكبيرة، وأقفلنا آذاننا بأيدينا، وفتحنا فَمَوينا.

حدث انفجار.

ركضنا حتّى السلك الشائك نحمل اللّوحين الباقيين وكيس الثوب.

كان والدنا ممدّداً قرب السياج الثاني.

بالفعل ثمّة سبيل لعبور الحدود: أن تدفع بأحدهم أمامك.

حاملاً كيس الثوب، ومقتفياً آثار خطوات أبي، ثمّ ماراً فوق جسده المتشظّي، عبرَ أحدنا إلى البلد الآخر.

أمّا من بقي منّا فقد عاد إلى بيت الجدّة.

هذا الكتاب

جئنا من المدينة الكبيرة. كنّا قد سافرنا اللّيل بأكمله. عينا أمي كانتا محمرّتين. كانت تحملُ صندوقَ كرتون كبيراً، فيما يحملُ كلّ منّا حقيبة صغيرة تحوي ملابسه، بالإضافة إلى المعجم الكبير، الذي كان ملكاً لأبي، والذي كنّا نتبادلُ حمله كلّما تَعِبَ ساعدُ أحدنا.

مشينا طويلاً. منزلُ الجدّة بعيد عن محطّة القطار، هو في الطرف الثاني من المدينة الصغيرة. لا يوجد هنا تراماواي، ولا باص ولا حتّى سيّارات. وحدها بعض الشاحنات العسكرية تجوب الطرقات.